

في البدء كان السؤال

الدكتور باسل ياسر البدوي

في البدء كان السؤال

مقدمة الكاتب

لم أكتب هذه الحكاية لأقدم إجابات. كتبتها لأنني، مثل التلميذ، حملت معي أسئلة كثيرة، بعضها لم أجد له جواباً، وبعضها اكتشفت أنني كنت أبحث عنه في المكان الخطأ. في صفحات هذا الكتاب، يجلس تلميذ أمام حكيم، ويسأله عن أشياء تبدو بسيطة: الوحدة، والصداقة، والحب، والخوف، والغيرة، والكرامة، والظلم، والرحيل... لكن الأسئلة، كلما تعمقنا فيها، تأخذنا إلى أماكن أبعد مما توقعنا. الحكيم هنا ليس صاحب الحقيقة المطلقة، والتلميذ ليس مجرد متلقٍ للحكمة. فكلاهما يتعلم. وربما لهذا السبب كتبت هذه الحكاية. لأنني أؤمن أن بعض الإجابات لا تُعطى لنا، بل تنضج في داخلنا مع الوقت، وأن بعض الأسئلة لا تأتي لتجد لها جواباً، وإنما لتجعلنا نرى أنفسنا بطريقة مختلفة. لذلك، لا تقرأ هذه الصفحات بحثاً عن حكمة تحفظها. اقرأها ببطء. وتوقف عند السؤال الذي يشبهك. وربما، في مكان ما بين سؤال التلميذ وصمت الحكيم، ستجد شيئاً كنت تبحث عنه منذ زمن. وربما ستجد سؤالاً جديداً... وهذا، في بعض الأحيان، يكون أجمل ما يمكن أن تمنحه لنا الحكايات. د. باسل ياسر البدوي 2026

المحطة الأولى: في هيبة الصمت وحيرة البدايات

في مكانٍ بعيدٍ عن ضجيج المدن، وعلى سفح جبلٍ تحيط به الأشجار من كل جانب، عاش حكيمٌ متنسكاً سنين طوالاً، لا يؤنس وحدته فيها إلا صوت الريح بين الأغصان، وخرير الماء في الوادي، وتبدّل الفصول. لم يكن الحكيم كثير الكلام، ولم يكن يرى في كثرة الحديث دليلاً على الحكمة. كان يصغي أكثر مما يتكلم؛ يصغي إلى المطر حين يهبط على أوراق الشجر، وإلى الطيور حين تبحث عن أعشاشها قبل الغروب، وإلى الصمت حين يخيم على المكان في آخر الليل. كان يقول أنّ الطبيعة كتابٌ مفتوحٌ، لكن معظم الناس يمرون بجانبه دون أن يقرأوا حرفاً منه.

سنواتٌ طويلة قضاها في التأمل، يتتبع أسرار الأشياء الصغيرة قبل الكبيرة؛ كيف تنحني الشجرة أمام الريح ثم تعود إلى استقامتها، كيف تسقط الورقة في موعدها دون أن تتشبث بالغصن، كيف يجد النهر طريقه بين الصخور دون أن يدخل معها في صراع، وكيف يستطيع الليل أن يأتي بعد النهار دون أن يسأل أحداً إن كان مستعداً له.

وفي تلك العزلة، كان يعيش معه تلميذٌ جاء إليه في صباه، فأقام عنده أعواماً يتعلم منه ما لم تكن الكتب قادرةً على تعليمه.

علّمه الحكيم أن ينظر قبل أن يحكم، وأن يصغي قبل أن يجيب، وأن يعرف متى يتكلم ومتى يكون الصمت أبلغ من الكلام. وكان كلما سأله التلميذ عن سرٍّ من أسرار الحياة، لا يمنحه الجواب سريعاً، بل يقوده إلى شجرة، أو نبع، أو طريق، أو حتى إلى لحظة صمت طويلة، ثم يتركه يبحث عن الجواب بنفسه.

ومرت السنوات.

وفي صباحٍ هاديٍّ، بينما كان الحكيم يجلس أمام كوخه يتأمل شروق الشمس، نظر إلى تلميذه طويلاً، ثم قال:

"حان الوقت."

رفع التلميذ رأسه متعجباً.

قال الحكيم:

"بعد أيام قليلة ستغادر هذا المكان، وستعود إلى الحياة التي جئت منها. لن أبقى هنا بعد اليوم."

صمت التلميذ، فقد كان يعلم أن هذا اليوم سيأتي، لكنه لم يكن يتوقع أن يشعر عند سماعه بهذه الكلمات بمزيج من الفرح والخوف.

ثم تابع الحكيم:

"لقد تعلمت هنا ما يكفي لتجلس وحدك، لكنك لم تتعلم بعد كيف تمشي بين الناس. فالجبال تعلم الإنسان السكون، أما الحياة فتعلمه كيف يحافظ على سكونه وسط الضجيج."

ثم ابتسم وقال:

"لذلك سأعطيك هذه الأيام الأخيرة درساً مختلفاً. لن أعلمك فيها كيف تعيش بعيداً عن الناس، بل سأحدثك عن الأشياء التي ستلقاها حين تعود إليهم؛ عن الألم، والخوف، والصبر، والملل، والفقد، والأمل، وعن أشياء أخرى ستكتشفها بنفسك."

ثم سكت قليلاً، وأضاف:

"اسألني ما شئت. اعتبر هذه الأيام آخر دروسك هنا. وبعدها لن تكون تلميذي كما كنت، بل ستصبح مسؤولاً عن إجاباتك."

نظر التلميذ إلى الحكيم، ثم إلى الطريق الممتد أسفل الجبل، وأدرك للمرة الأولى أن خروجه من هذا المكان لن يكون مجرد مغادرة لمكان عاش فيه سنوات، بل خروجاً إلى حياة لم يعد يستطيع الاختباء منها.

جلس أمام الحكيم، وقال:

"إذن يا سيدي... إن كانت هذه آخر دروسك لي، فعلمني أولاً عن شيء لا يستطيع الإنسان أن يهرب منه مهما ابتعد."

رفع الحكيم عينيه إليه، وصاد بينهما صمتٌ قصير.

ثم قال التلميذ للحكيم: علمني عن الصبر.

ابتسم الحكيم ابتسامة خافتة، وأطرق برأسه قليلاً، ثم رفع بصره إلى الأفق، كأن السنين كانت تمر أمام عينيه. وبعد صمتٍ طال حتى ظن التلميذ أنه لن يجيب، قال:

"يا بني، يظن كثيرٌ من الناس أنَّ الصبر هو أن تحبس دمعتك، أو تكتم شكواك، أو تتظاهر بالقوة أمام الآخرين. وما ذاك إلا وجهٌ من وجوه الصبر، وليس الصبر كله.

الصبر الحقيقي أن تستيقظ كلَّ صباح، فتجد الألم في مكانه، والانتظار كما هو، ثم تقول لنفسك: سأكمل هذا اليوم كما أكملت الذي قبله، حتى وإن لم أرَ نهاية الطريق.

الصبر ليس أن تنكر وجعك، بل أن تعرفه حق المعرفة، ثم تمنعه من أن يقود قراراتك. وليس أن تتوقف عن الشكوى لأنك لم تعد تتألم، بل لأنك أدركت أن كثرة الشكوى لا تُقصر عمر البلاء، ولا تُطيل عمر الأمل. واعلم أن لكل جرحٍ زمناً لا يقبل الاستعجال. فلا أحد يستطيع أن يأمر الفجر أن يطلع قبل أوانه، أو يطلب من العظم أن يلتئم قبل أن يتم خلقه. ومن استعجل الشفاء، كثيراً ما أرهق نفسه، وربما أعادها إلى بداية الطريق. ولعلَّ أشد ما يختبر الصبر أن ترى الناس يمضون في أعمالهم وأسفارهم وأحلامهم، بينما أنت حبيس فراشك أو محدود الحركة. لكن لا تجعل سكون جسدك يقنعك بأن حياتك قد توقفت؛ فهناك معارك تُخاض بالصمت، وانتصارات لا يراها إلا صاحبها.

ولا تظن أن الأيام التي تقضيها في السكون أيامٌ ضائعة؛ ففي ظاهرها هدوء، وفي باطنها عملٌ لا تراه العين. فالجرح يرمم نفسه، والعظم يبني قوته من جديد، والنفس تنضج بالمحنة كما تنضج الأشجار ببطء الفصول. ثم سكت الحكيم قليلاً، ونظر إلى التلميذ كأنه أراد أن يترك لكلماته وقتاً كي تستقر في نفسه، ثم قال بصوتٍ هادئ:

"إذا أثقلت طول الطريق، فلا تعد ما بقي منه، بل انظر إلى ما تجاوزته. فإن من شغل نفسه بالمسافة الباقية أرهق قلبه، ومن تذكر ما قطعه، ازداد يقيناً بأنه قادرٌ على بلوغ النهاية."

ثم ابتسم، وقال:

"واعلم يا بني أن الصبر ليس انتظار أن تنقضي العاصفة، بل أن تحافظ على جذورك ثابتةً حتى إذا انقشعت، وجدت نفسك ما زلت واقفاً." ظل التلميذ صامتاً للحظات.

كان كلام الحكيم قد هدأ شيئاً في داخله، لكنه فتح في الوقت نفسه باباً لسؤال آخر. فقد أدرك أن الصبر لا يُختبر بالألم وحده؛ فالألم قد يشتد ثم يهدأ، وقد تأتي لحظات لا يكون فيها الوجد هو أصعب ما في الأمر، وإنما طول الانتظار، وتكرار الأيام، وتشابه الساعات.

نظر التلميذ إلى الأشجار من حوله، ثم نظرَ إلى معلمه فوجده يخط بعصاه على التراب فقال:

"يا سيدي، وماذا عن الأيام التي لا يؤلمنا فيها شيءٌ جديد، ولا يحدث فيها شيءٌ جديد؟ حين تتشابه الساعات، ويصبح انتظار الغد هو الشيء الوحيد الذي نفعله... ماذا نفعل بالملل؟"

تنهد الحكيم، وأخذ يقلب بين أصابعه غصناً يابساً كان بجواره، ثم قال:

"الملل ليس عدو الوقت، بل عدو المعنى. فالساعة نفسها قد تمر على رجل في لمح البصر، وتمر على آخر كأنها عامٌ كامل. وما اختلفت الساعة، وإنما اختلف ما في القلب.

إن أشد أنواع الملل ليس أن تبقى في مكانٍ واحد، بل أن تشعر أن الأيام تمضي بينما حياتك واقفة. وهذه هي المحنة التي يعرفها كل من قيدته علة، أو حبسته جراحه، أو أجبره الزمن على الانتظار.

إياك أن تجعل الملل يقنعك بأنك لا تتقدم. فالشجرة لا يراها أحد وهي تمد جذورها في باطن الأرض، ومع ذلك يأتي يومٌ تقف فيه شامخة. وكذلك الإنسان؛ قد يبدو ساكناً في نظر الناس، بينما هو في داخله يبني قوةً لن تظهر إلا بعد حين.

وإذا ثقل عليك النهار، فلا تطلب من الوقت أن يسرع، بل اسأل نفسك: ماذا أستطيع أن أزرع في هذه الساعة حتى لا تضيع؟ فإن الدقيقة التي تُملأ بعلم، أو فكرة، أو دعاء، أو ذكرى جميلة، لا تعود دقيقةً مملة، بل تصبح جزءاً من حياة تستحق أن تُعاش.

ثم سكت الحكيم قليلاً، وقلب الغصن اليابس بين أصابعه، قبل أن يرفع عينيه إلى التلميذ ويبتسم:

"وتذكر يا بني... ليس الملل أن يطول الطريق، بل أن تنسى إلى أين تمضي."

ظلّ التلميذ ينظر إليه طويلاً، وكأنّ العبارة الأخيرة لم تكن جواباً عن الملل وحده، بل كانت تفتح باباً لأسئلةٍ أخرى لم يجد لها اسماً بعد.
أما الحكيم، فعاد ببصره إلى الأشجار، وترك للصمت أن يكمل ما لم تقفه الكلمات.

كان الليل قد ألقى عباءته على المكان، ولم يبقَ في السماء إلا ضوء شاحب يتسلل بين الغيوم.

جلس التلميذ إلى جوار الحكيم، صامتاً كعادته حين تعجز الكلمات عن حمل ما في صدره.

وبعد صمت طويل، قال:

- أخاف، يا حكيم، أن أعود... فأبقى وحدي، دون صديق.

رفع الحكيم عينيه إليه، وظل صامتاً لحظات.

ثم قال:

- وما الذي يخيفك في الوحدة؟

قال التلميذ:

- أخاف أن يأتي المساء ولا أجد من أحدثه. أن يحدث لي شيء فلا أجد من

أخبره. أن أفرح فلا أجد من يفرح معي، أو أحزن فلا أجد من أجلس إلى

جواره دون أن أشرح له سبب حزني.

قال الحكيم:

- أتخاف الوحدة، أم تخاف ألا يكون لك أحد؟

فكر التلميذ طويلاً، ثم قال:

- لعنني أخاف الأمرين.

قال الحكيم:

- الوحدة ليست دائماً أن تكون بلا أحد، يا بني. قد يكون الإنسان بين مئة

شخص، ولا يجد بينهم واحداً يشعر أنه معه حقاً. وقد يجلس وحيداً، ولا

يشعر بالوحدة، لأنّ في داخله ما يؤنسه.

ثم نظر إليه وقال:

- لكنك قلت: «دون صديق».

قال التلميذ:

- ومن هو الصديق يا حكيم؟

ابتسم الحكيم:

- وهل كل من نضحك معه صديق؟

- لا.

- وكل من نتحدث معه كل يوم؟

- لا أظن.

- وكل من يقف معنا حين نكون أقوياء؟

سكت التلميذ.

قال الحكيم:

- الصديق ليس من يملأ وقتك، بل من لا يجعلك تشعر أنك مضطر إلى أن

تكون شخصاً آخر كي يبقى إلى جانبك.

سأل التلميذ:

- وكيف أعرف أن هذا الإنسان هو صديقي؟

قال الحكيم:

- لا تعرفه حين تجلس معه في أيامك السهلة، بل حين تصبح صحبتك ثقيلة.

ثم أضاف:

- راقب من يبقى حين لا يكون لك ما تعطيه. من يفرح لفرحك دون أن يقيسه

بفرحه، ويحزن لحزنك دون أن يستعمل حزنك لمصلحته. من تستطيع أن

تختلف معه دون أن تخاف أن تخسره، وأن تصمت أمامه دون أن تشعر بأن

عليك أن تملأ الصمت بالكلام.

قال التلميذ:

- وهل يكفي ذلك لأقول إنه صديق؟

هز الحكيم رأسه:

- لا تتعجل في تسمية الناس يا بني. الصداقة لا تُعرف بكثرة الأيام التي

تجمعكما، بل بما تكشفه الأيام عنكما.

ثم سكت قليلاً، وقال:

- وبعض الناس نعرفهم في ساعة، ثم نكتشف بعد أعوام أننا لم نعرفهم قط.

وبعضهم يحتاج إلى أعوام طويلة حتى نكتشف أنه كان قريباً منا منذ اللحظة

الأولى.

قال التلميذ:

- إذن كيف أختار صديقي؟
ابتسم الحكيم، وقال:
- قبل أن تسألني كيف تختار صديقك، اسأل نفسك أولاً: أيّ صديق تكون أنت؟
خفض التلميذ رأسه.
وبقي السؤال بينهما طويلاً.
ثم قال:
- وهل أستطيع أن أكون صديقاً جيداً وأنا أخاف أن يتركني أصدقائي؟
قال الحكيم:
- ربما يكون خوفك من فقدهم هو أول ما يمنعك من أن تكون صديقاً حراً.
رفع التلميذ عينيه باستغراب.
- كيف؟
قال الحكيم:
- لأنّ من يخاف أن يفقد صديقه قد يبدأ في امتلاكه. يسأله أين ذهب، ومع من جلس، ولماذا تأخر، ولماذا لم يعد يتحدث كما كان. ثم يسمي خوفه حباً، وقلقه اهتماماً، وامتلاكه وفاءً.
سكت التلميذ.
ثم قال:
- وكيف أحبّ صديقي دون أن أمتلكه؟
قال الحكيم:
- كما تحبّ الشجرة التي تزرعها.
- ماذا تعني؟
- تسقيها، وتحميها، وتفرح حين تكبر... لكنك لا تشد أغصانها كي تكبر أسرع.
ابتسم التلميذ للمرة الأولى.
قال:
- وهل الصداقة تحتاج إلى الحرية؟
- كل علاقة لا تجد فيها مساحة للتنفس تتحول مع الوقت إلى قيد.
ثم أضاف:

- والصديق الحقيقي لا يحتاج أن يمسك بيدك طوال الطريق. يكفي أن تعرف أنه إذا التفت فلن تجده قد اختفى.

مرّت لحظات من الصمت.

ثم قال التلميذ:

- يا حكيم... لماذا نفقد بعض أصدقائنا إذن؟

نظر الحكيم إلى النار أمامه، وقال:

- لأنّ بعض العلاقات تنتهي، يا بني.

- حتى الصداقة؟

- حتى الصداقة.

- وهل يعني ذلك أنها لم تكن صداقة؟

ابتسم الحكيم بحزن.

- ليس كل ما ينتهي كان كذباً.

ثم أخذ غصناً صغيراً، وقلبه بين أصابعه.

- كانت هناك أشجار جميلة في هذا العالم، لكنها لم تكن تعيش إلى الأبد. فهل

كان جمالها كذباً؟

سكت التلميذ.

قال الحكيم:

- بعض الناس يأتون ليبقوا معنا، وبعضهم يأتون ليعلمونا شيئاً ثم يرحلون.

والمشكلة أننا نريد من كل من أحببناهم أن يبقوا في حياتنا بالطريقة نفسها

إلى الأبد.

قال التلميذ:

- وماذا نفعل حين يرحلون؟

أجاب الحكيم:

- نحزن.

- فقط؟

- لا يوجد علاج للحزن سوى أن نسمح له بأن يأخذ وقته.

ثم نظر إليه وقال:

- لا تجعل قوتك في ألا تحزن. اجعل قوتك في ألا يتحول حزنك إلى مرارة.

سكت التلميذ طويلاً.

ثم قال:

- وماذا عن الفقد.

تنهد الحكيم، وقال:

- الفقد ليس أن يختفي شخص من أمامك فقط. أحياناً نفقد مكاناً، أو زمناً، أو حلاًماً، أو صورة كنا نراها لأنفسنا.

ثم قال:

- وأصعب الفقد أن تفقد نسخة من نفسك كانت موجودة مع شخص تحبه.

نظر التلميذ إليه بصمت.

قال الحكيم:

- لهذا لا يبكي الإنسان دائماً على من رحل. أحياناً يبكي على نفسه التي لم تعد كما كانت.

قال التلميذ بعد صمت

- وإذا كان الماضي لا يعود، فلماذا نبقي نعيش فيه؟

قال الحكيم:

- لأننا نعتقد أن النظر إلى الخلف سيغير ما حدث.

- لكنه لا يتغير.

- نعرف ذلك بعقولنا، ولا تصدقه قلوبنا.

قال التلميذ:

- وهل علينا أن ننسى؟

- لا.

- إذن ماذا نفعل بالماضي؟

قال الحكيم:

- احمله ككتاب، لا كبيت.

- ما الفرق؟

- تستطيع أن تفتح الكتاب، وتقرأ منه، وتتعلم، ثم تغلقه وتمضي. أما إذا جعلته بيتك، فلن ترى الشمس إلا من نافذة الماضي.

قال التلميذ:

- حدثني عن الندم.
- ابتسم الحكيم وقال:
- الندم هو الثمن الذي ندفعه أحياناً كي نتعلم ما لم نكن مستعدين لتعلمه قبل أن نخطئ.
- وهل كل ندم مفيد؟
- لا.
- وما الفرق؟
- قال الحكيم:
- الندم الذي يعلمك شيء، والندم الذي يعاقبك.
- وكيف أعرف الفرق؟
- إذا جعلك الندم تقول: «لن أكرر هذا»، فهو معلم. وإذا جعلك تقول: «ليتني كنت شخصاً آخر»، فهو سجن.

ثم رفع التلميذ رأسه إلى السماء.

وقال:

- وإذا خرجت من الماضي، فماذا أفعل بالخوف من المستقبل؟

قال الحكيم:

- أي شيء تخاف؟

- أخاف أن أ فشل. أن أخسر. أن أعود وحيداً. أن أختار الطريق الخطأ.

قال الحكيم:

- وهل تستطيع أن تضمن ألا يحدث شيء من ذلك؟

- لا.

- إذن لماذا تطلب من المستقبل ضماناً قبل أن تدخل إليه؟

سكت التلميذ.

قال الحكيم:

- الشجاعة ليست ألا تخاف يا بني. الشجاعة أن تمضي رغم أنك لا تملك ضماناً.

بعد لحظات قليلة من الصمت قال التلميذ:

- لكن الانتظار متعب.

- ماذا تنتظر؟

- أن تتحسن الأمور. أن أعرف ماذا أفعل. أن يأتي شيء يغير حياتي.

قال الحكيم:

- بعض الناس يقضون حياتهم في غرفة الانتظار.

- وهل الانتظار خطأ؟

- ليس الخطأ أن تنتظر. الخطأ أن تجعل حياتك معلقة بما تنتظره.

ثم قال:

- عش ما بين يديك. فربما جاء الشيء الذي تنتظره، ووجدك قد أضعت

نفسك في انتظاره.

- عاد التلميذ إلى صمته، تنهد طويلاً ثم قال:
- إذن هل الإنسان حر؟
 - نظر الحكيم إليه .
 - حرّ في ماذا؟
 - في أن يختار.
 - قال الحكيم:
 - ليس كلُّ ما يحدث لك اختياراً منك. لكن ما تفعله بما يحدث لك... فيه جزء من حريتك.
 - حتى حين لا أملك تغيير ما حدث؟
 - خصوصاً حين لا تملك تغييره.
 - ثم قال:
 - قد لا تختار الجرح، لكنك تختار ماذا تفعل به. قد لا تختار من يرحل، لكنك تختار كيف تكمل الطريق بعده.
 - قال التلميذ:
 - وهل الحرية أن أفعل ما أريد؟
 - ابتسم الحكيم.
 - هذه رغبة، وليست حرية.
 - وما الحرية إذن؟
 - قال:
 - أن تستطيع أن تقول «لا» لما يؤذيك، حتى لو كنت تريده. وأن تقول «نعم» لما ينفعلك، حتى لو كان صعباً.
 - ثم أضاف:
 - وأحياناً تكون أعظم حريتك أن تعرف أن بعض الأشياء لا تستحق أن تقاتل من أجلها.

- استمرت كلمات الحكيم عن الحرية تتردد في رأسه كصدى محبوس في كهف، وبعد لحظاتٍ من صمتٍ وتأملٍ قال التلميذ:
- وهل السعادة هي أن أصل إلى ما أريد؟
- ضحك الحكيم ضحكة خفيفة.
- لو كانت كذلك، لكان أكثر الناس سعادة هم أكثرهم امتلاكاً.
- فما السعادة؟
- قال الحكيم:
- ألا تجعل حياتك مؤجلةً إلى أن تحصل على شيء.
- ثم سكت.
- السعادة ليست أن تكون حياتك بلا ألم. بل أن تجد فيها شيئاً يستحق أن تتحمل الألم من أجله.
-

لم يبدي التلميذ اعجابه من كلام الحكيم عن السعادة، ربما كان يرى نفسه مخالفاً لرأي الحكيم فأردف التلميذ وقال:

- وماذا عن الحب؟

نظر الحكيم إلى النار.

وظل صامتاً وقتاً أطول من المعتاد.

ثم قال:

- لماذا تسألني عنه؟

قال التلميذ:

- لأنني أظن أنني أحببت.

ابتسم الحكيم.

- وتظن؟

- لا أعرف.

قال الحكيم:

- الحب الذي يحتاج إلى امتلاك الآخر خوفاً من فقدّه، ليس حباً كاملاً. والحبّ

الذي لا يحتمل اختلاف الآخر ليس حباً، بل إعجاب بنفسك وهي ترى نفسها

فيه.

- إذن كيف أعرف الحب؟

قال الحكيم:

- حين تريد للآخر أن يكون بخير، حتى في الأيام التي لا تستطيع فيها أن

تكون أنت جزءاً من خيره.

سكت التلميذ طويلاً.

ثم قال:

- هذا مؤلم.

قال الحكيم:

- لأنّ الحبّ الحقيقي لا يعلمك كيف تمتلك، بل كيف تعطي دون أن تضمن

المقابل.

.....

- حلّ الصمت بينهما وانشغل كلاهما في النظر إلى نجمة ضائعة في السماء وكأنها تراقبهم من فوق.
- بدا أن التلميذ لم يعد يسأل كما كان في البداية.
- لم تعد أسئلته تبحث عن إجابات سريعة، بل أصبحت كأنها تبحث عن مكان تقف فيه داخل نفسه.
- وبعد وقت طويل، قال:
- يا حكيم... كيف أعرف أن لحياتي معنى؟
- قال الحكيم:
- حين يصبح وجودك نافعاً لشيء يتجاوز رغباتك.
- هل يجب أن أغير العالم؟
- ضحك الحكيم.
- لا يا بني. قد يكون معنى حياة إنسان في كلمةٍ قالها في الوقت المناسب، أو يدٌ مدها لشخص كان على وشك السقوط، أو علمٌ علّمه، أو حبٌّ منحه دون ضجيج.
- ثم قال:
- المعنى ليس دائماً شيئاً عظيماً يراه الناس. أحياناً يكون شيئاً صغيراً لا يعرف قيمته إلا شخص واحد.
-

- فكّر التلميذ بكلمات معلمه طويلاً، ثم قال:
- وإذا كان لكل شيء نهاية... فما الموت؟
- رفع الحكيم عينيه إليه.
- وللمرة الأولى، لم يبتسم.
- قال:
- النهاية التي تجعلنا نفهم أن الوقت الذي لدينا ليس ملكاً لنا.
- قال التلميذ:
- وهل نخاف الموت لأننا لا نعرفه؟
- قال الحكيم:
- ربما.

- وماذا بعد الموت؟
- صمت الحكيم وركز نظره في الأرض كمن ينظر في بئر عميقٍ ثم قال:
- لا أعرف.
- نظر التلميذ إليه بدهشة.
- أنت لا تعرف؟
- ابتسم الحكيم.
- الحكيم ليس من يعرف جواب كل سؤال يا بني. الحكيم من يعرف متى يقول: «لا أعرف».
- ثم نظر إلى السماء وقال:
- لكنني أعرف شيئاً واحداً.
- ماذا؟
- أن الإنسان حين يعرف أن له نهاية، يبدأ أخيراً في السؤال: ماذا سيفعل بما بقي؟

.....

- كانا يجلسان على بعد ذراع بينهما فاقترب التلميذ من الحكيم، وقال:
- وأنت... ماذا تعلمت من كل هذا؟
- ابتسم الحكيم.
- وقال:
- أنني أمضيت نصف عمري أبحث عن أجوبة، ثم اكتشفت أن بعض الأسئلة كانت أهم من الأجوبة.
- مثل ماذا؟
- قال الحكيم:
- من أنا؟
- ثم صمت قليلاً.
- ماذا أريد؟
- ثم صمت.
- وماذا أستطيع أن أعطي؟
- ثم نظر إلى التلميذ وقال:

- وأصعبها جميعاً...

- ما هو؟

قال الحكيم:

- هل أصبحت الإنسان الذي كنت أحتاج إليه حين كنت في مثل عمرك؟

لم يجب التلميذ.

ولم يجد الحكيم ما يضيفه.

وبقي الاثنان ينظران إلى النار، بينما كان الليل يمضي ببطء.

وفي تلك الليلة، للمرة الأولى، لم يخشَ التلميذ أن يكون وحيداً.

لأنه بدأ يكتشف أن الإنسان قد يحتاج إلى صديق كي يؤنس وحدته...

لكنه يحتاج أولاً إلى أن يصبح قادراً على الجلوس مع نفسه دون أن يهرب منها.

.....

كان الليل قد اشتد، والنار أمامهما تخفت شيئاً فشيئاً، بينما بقي في عينيه

شيء من الأسئلة التي لم يجد لها جواباً.

ثم قال:

- يا حكيم...

التفت إليه الحكيم.

قال التلميذ:

- تحدثنا عن الصديق، وعن الفقد، وعن الخوف، وعن الحب، وعن

الموت... لكنني اكتشفت شيئاً أخاف منه أكثر من الوحدة.

- وما هو؟

قال التلميذ:

- أن أعيش عمري كله... دون أن أعرف من أنا.

لم يجب الحكيم مباشرة.

ألقى غصناً صغيراً في النار، ثم قال:

- وكيف تريد أن تعرف نفسك؟

- أليس من المفترض أن أعرفها؟

ابتسم الحكيم.

- ليس بالضرورة.

- كيف؟

قال الحكيم:

- قد تعرف اسمك، ومهنتك، وعمرك، والمدينة التي ولدت فيها، والأشياء

التي تحبها وتكرهها... ومع ذلك لا تعرف نفسك.

- فما النفس إذن؟

قال الحكيم:

- هي ذلك الشيء الذي يبقى منك حين تسقط كل الأسماء التي اعتدت أن تقدم

نفسك بها للآخرين.

سكت التلميذ.

ثم قال:

- وكيف أصل إليها؟

قال الحكيم:

- راقب نفسك حين لا يراك أحد.

- لماذا؟

- لأنك أمام الناس قد تختار ما تظهره، أما حين تكون وحدك فتظهر أشياء

كثيرة كنت تخفيها حتى عن نفسك.

ثم أضاف:

- راقب ما يثير غضبك، وما يخيفك، وما تحسده، وما تتمنى لو كان لك، وما

تفعله حين لا تنتظر مكافأة ولا تخشى عقوبة.

قال التلميذ:

- أهذه هي نفسي؟

- هذه بعض أبوابها.

.....

ظل التلميذ يفكر.

ثم قال:

- وإذا نزعت عني كل ما يعرفه الناس عني... فمن أكون؟

قال الحكيم:

- سؤال أصعب مما تظن.

- لماذا؟
- لأنك منذ ولادتك تجمع حول نفسك أشياء كثيرة، ثم تنسى أنها ليست أنت.
- مثل ماذا؟
- يقولون لك: كن كذا.
- فتصبح كذا.
- ويقولون: هذا عيب.
- فتخجل منه.
- ويقولون: هذا نجاح.
- فتسعى إليه.
- ويقولون: هذا فشل.
- فتهرب منه.
- ثم يأتي يوم تسأل فيه نفسك: ماذا أريد أنا؟
- ولا تجد جواباً.
- قال التلميذ:
- لأنني تعودت أن أريد ما يريده الآخرون؟
- أحياناً.
- ثم قال الحكيم:
- أخطر ما يمكن أن يحدث للإنسان ليس أن يفشل في أن يكون نفسه، بل أن ينجح في أن يكون شخصاً لم يختره.
- لكن لماذا أخاف أن أكون نفسي؟
- قال الحكيم:
- لأنك تخاف أن يرفضك الآخرون.
- وإذا رفضوني؟
- يؤلمك ذلك.
- إذن ماذا أفعل؟
- اسأل نفسك: هل تريد أن يحبك الناس لأنك أنت، أم لأنك تؤدي لهم الدور الذي يريدونه؟
- سكت التلميذ.

قال الحكيم:

- من السهل أن يحبك الناس حين تفعل ما يتوقعونه منك. لكنك لن تعرف أبداً هل أحبوا حقيقتك أم أحبوا الصورة التي صنعتها لهم.

قال التلميذ:

- وهل يجب ألا أهتم برأي الناس؟

- لا.

- لماذا؟

- لأنَّ الناس قد يرون فيك شيئاً لا تراه أنت.

ثم ابتسم.

- لكن لا تجعل رأيهم مرآتك الوحيدة.

- حسناً يا معلم قال التلميذ ولكن لماذا نهتم كثيراً بما يقوله الناس عنا؟

قال الحكيم:

- لأنَّ الإنسان مخلوق بين الناس.

- وهل يمكنه أن يعيش دونهم؟

- لا.

- إذن لا مفر من رأيهم.

قال الحكيم:

- لا مفر من أن يسمعك الناس. لكن هناك فرق بين أن تسمع كلامهم، وأن تسكن فيه.

- كيف؟

- إذا مدحك أحد، فاسمع.

وإذا انتقدك، فاسمع أيضاً.

ثم قال:

- لكن بعد أن تسمع، عد إلى نفسك واسأل: هل هذا صحيح؟

- وماذا إن كان صحيحاً؟

- أصلحه.

- وإن كان خاطئاً؟

- اتركه حيث قيل.

قال التلميذ:

- وماذا لو لم يعجبهم ما أصلحته؟

قال الحكيم:

- عندها ستتعلم درساً مؤلماً.

- ما هو؟

- أنك لا تستطيع أن تعيش حياة ترضي الجميع.

.....

قال التلميذ:

- وهل أستطيع أن أرضي الجميع إن حاولت بما يكفي؟

ضحك الحكيم.

- وهل رأيت إنساناً استطاع ذلك؟

- لا.

- إذن لماذا تحاول؟

قال التلميذ:

- لأنني لا أريد أن أخسر أحداً.

نظر الحكيم إليه طويلاً، ثم قال:

- ومن قال لك إنك تملك الجميع حتى تخسرهم؟

سكت التلميذ.

قال الحكيم:

- بعض الناس سيحبونك مهما فعلت. وبعضهم سيختلف معك مهما حاولت.

وبعضهم سيغادرون لأنك تغيرت، وبعضهم سيغادرون لأنهم لم يعودوا

يجدون فيك الشخص الذي كانوا يحتاجونه.

ثم أضاف:

- لا تجعل حياتك ثمناً لرضى الآخرين.

.....

قال التلميذ:

- إذاً ماذا أريد أنا؟

ابتسم الحكيم.

- الآن بدأت تسأل السؤال الحقيقي.

- ألا تعرف الجواب؟

- لو أخبرتك، فلن يكون جوابك.
- فلماذا لا تخبرني؟
- لأنني أستطيع أن أقول لك ماذا أريد أنا، لكنني لا أستطيع أن أعيش حياتك بدلاً منك.
- ثم قال:
- اسأل نفسك: لو لم يكن هناك أحد ليمدحك، ماذا كنت ستفعل؟
- سكت التلميذ.
- ولو لم يكن هناك أحد ليسخر منك، ماذا كنت ستختار؟
- ظل صامتاً.
- ولو لم يكن هناك أحد ليصفق لك، أي طريق كنت ستسلك؟
- خفض التلميذ عينيه.
- قال الحكيم:
- أحياناً لا نعرف ما نريده، لأنَّ أصوات الآخرين أعلى من صوتنا.

.....

- قال التلميذ:
- وكيف أعرف أن ما أريده هو حقاً ما أريده؟
- قال الحكيم:
- راقب رغبتك عندما تزول عنها عيون الناس.
- ماذا تعني؟
- قد تريد المال، لا لأنك تحتاجه، بل لأنك تريد أن ترى نفسك أفضل من غيرك.
- وقد تريد النجاح، لا لأنَّ العمل يعني لك شيئاً، بل لأنك تريد أن يقال عنك إنك ناجح.
- وقد تريد شخصاً، لا لأنك تحبه، بل لأنك لا تحتمل أن يشارك شخصاً آخر.
- ثم قال:
- ليست كل رغبة في داخلك صادرة عنك.
- وكيف أميزها؟
- اسأل نفسك: لو لم يعرف أحد أنني حصلت على هذا الشيء، هل سأظل أريده؟

سكت التلميذ.

قال الحكيم:

- هذا السؤال وحده قد يكشف لك الكثير.

.....

قال التلميذ:

- وهل يستطيع الإنسان أن يغيّر نفسه؟

قال الحكيم:

- نعم.

- كلها؟

- لا.

- إذن ماذا يستطيع أن يغير؟

قال الحكيم:

- يستطيع أن يغير عاداته، ونظراته، وطريقته في التعامل مع ما يحدث له.

يستطيع أن يتعلم، وأن يعتذر، وأن يتوقف، وأن يبدأ.

- وماذا عن طباعه؟

- بعضها يلين، وبعضها يبقى.

ثم قال:

- لا تحاول أن تصبح إنساناً آخر. حاول أن تصبح نسخة أصدق من نفسك.

قال التلميذ:

- وهل التغيير سهل؟

ابتسم الحكيم.

- لو كان سهلاً لما احتاج الإنسان إلى الشجاعة.

.....

قال التلميذ:

- ولماذا يصعب علينا أن نبدأ من جديد؟

قال الحكيم:

- لأننا نخاف أن يكون كل ما مضى قد ضاع.

- وهل يضيع؟

- لا.

- حتى الأخطاء؟
- حتى الأخطاء.
- وكيف تكون الأخطاء نافعة؟
- قال الحكيم:
- حين تتعلم منها.
- ثم أضاف:
- لا تستطيع أن تعيد الصفحة، لكنك تستطيع أن تكتب بعدها بشكل مختلف.
- قال التلميذ:
- وماذا عن الناس الذين عرفوني كما كنت؟
- سيحتاج بعضهم إلى وقت كي يصدق أنك تغيرت.
- وإذا لم يصدقوا؟
- دع أفعالك تتحدث عنك.

.....

- قال التلميذ:
- ومتى يكون الوقت متأخراً؟
- نظر الحكيم إلى النار.
- وقال:
- لبعض الأشياء، يكون الوقت متأخراً فعلاً.
- مثل ماذا؟
- لا تستطيع أن تعيد طفولتك. ولا تستطيع أن تمنح شخصاً رحل فرصة أخرى. ولا تستطيع أن تمحو كل خطأ ارتكبته.
- سكت التلميذ.
- ثم قال الحكيم:
- لكن هناك فرق بين أن يكون الوقت قد فات على شيء، وأن يكون قد فات على حياتك.
- رفع التلميذ رأسه.
- قال الحكيم:
- ما دام فيك نفس، فهناك شيء ما تستطيع أن تفعله بما بقي.
- حتى لو بقي القليل؟

- حتى لو بقي القليل.

ثم ابتسم الحكيم وقال:

- أحياناً لا يحتاج الإنسان إلى عمر جديد. يحتاج فقط إلى أن يتوقف عن

إضاعة العمر الذي بقي.

ساد الصمت بينهما طويلاً وكأن الكلمات قد انتهت. انشغل كل منهما في

اللعب بالنار وكأنهما يهربان من الحديث

.....

بعد دقائق من الصمت نظر التلميذ إلى معلمه ثانية واستمر في التحديق به و لكن شيئاً في داخله كان ينظر إلى مكان آخر.
وبعد وقت طويل، قال:

- يا حكيم...

- نعم؟

- أظن أنني كنت أبحث طوال الوقت عن إجابة لسؤال: «ماذا أفعل بحياتي؟»

- وماذا اكتشفت؟

قال التلميذ:

- أنني لم أسأل السؤال الذي يسبقه.

- وما هو؟

قال:

- «من أريد أن أكون؟»

ابتسم الحكيم.

وقال:

- الآن تستطيع أن تبدأ.

- من أين؟

نظر الحكيم إلى الطريق الممتد أمامهما، وقال:

- من الخطوة التي تستطيع أن تخطوها الآن.

ثم نهض ببطء.

وقال:

- فالحياة يا بني لا تتغير حين نعرف الطريق كله.

وتوقف لحظة.

- بل حين نقرر أن نخطو أول خطوة فيه.

.....

كان الصباح قد بدأ يقترب، لكن التلميذ لم يشعر بالنعاس.
جلس إلى جوار الحكيم، وقد بدا عليه شيء من الهدوء لم يكن موجوداً من قبل.

وبعد صمت قصير قال:

- يا حكيم... قلت لي إن عليّ أن أبدأ من الخطوة التي أستطيع أن أخطوها الآن.

- نعم.

- لكن ماذا أفعل بمن آذاني؟

نظر الحكيم إليه.

- ماذا تريد أن تفعل بهم؟

قال التلميذ:

- لا أعرف... أحياناً أريد أن أنسى، وأحياناً أريد أن أرى لهم ما فعلوه.

قال الحكيم:

- إذن أنت لا تزال تحملهم معك.

- كيف؟

- لأنك ما زلت تسمح لما فعلوه أن يقرر ما تشعر به اليوم.

سكت التلميذ.

ثم قال:

- وهل التسامح يعني أن أنسى؟

- لا.

- وأن أسمح لهم بالعودة؟

- ليس بالضرورة.

- إذن ما التسامح؟

قال الحكيم:

- أن تتوقف عن حمل الأذى كأنه حدث في هذه اللحظة.

ثم أضاف:

- التسامح لا يغير ما فعله الآخر بك، لكنه يغير المساحة التي يحتلها ذلك

الفعل في داخلك.

قال التلميذ:

- وهل يجب أن أسامح كل من ظلمني؟
قال الحكيم:
- ليس كل من ظلمك يستحق أن تعود إليه، لكن كل ظلم يستحق ألا يبقى سجيناً لك.
سكت التلميذ قليلاً.
ثم قال:
- وهل الغفران هو التسامح نفسه؟
قال الحكيم:
- ليس تماماً.
- فما الفرق؟
- التسامح أن تترك الغضب يرحل. أما الغفران فأعمق؛ لأنه يعني أنك لم تعد بحاجة إلى أن ترى الآخر يتألم كي تشعر أن حقك قد عاد.
قال التلميذ:
- لكن هذا صعب.
- بالطبع.
- ولماذا؟
قال الحكيم:
- لأنَّ الإنسان يظن أحياناً أن غضبه هو آخر شيء بقي له من كرامته.
ثم نظر إليه وقال:
- لكنه لا يعرف أن بعض الغضب يتحول مع الوقت إلى قيد.
قال التلميذ:
- وهل أغفر لمن لم يعتذر؟
قال الحكيم:
- تستطيع أن تغفر لنفسك حملة، دون أن تعفيه من مسؤوليته.
- كيف؟
- الغفران لا يعني أن تقول: «لم يكن ما فعله سيئاً».
ثم قال:
- بل أن تقول: «كان سيئاً، لكنه لن يظل يحكم حياتي».

قال التلميذ:

- ولكن ماذا عن الظلم؟
- تغير وجه الحكيم قليلاً.
- الظلم ليس شيئاً ينبغي أن نتعلم فقط كيف نتحملة.
- ماذا تقصد؟

- بعض الناس يخلطون بين الحكمة والاستسلام.
- أليست الحكمة أن أصبر؟
- الصبر لا يعني أن تقبل الظلم، كما أن الغضب لا يعني أنك عادل.
- ثم قال:

- إذا ظلمك أحد، فاحفظ حقك إن استطعت، ورد الظلم بالطرق التي لا تجعلك ظالماً مثله.
- وماذا إن لم أستطع؟
- قال الحكيم:

- عندها لا تجعل عجزك عن تغيير الظلم سبباً في أن تظلم نفسك أيضاً.
- سأل التلميذ:

- كيف أظلم نفسي؟
- حين تجعل ما حدث لك تعريفاً لك.
- ثم أضاف:

- أن يقول لك أحد إنك ضعيف، لا يعني أنك ضعيف. وأن يعاملك أحد كأنك لا تستحق، لا يعني أنك لا تستحق.

.....
ظل التلميذ صامتاً.

ثم قال:

- إذا... ما القوة؟

ابتسم الحكيم.

- وما الذي تظنه قوة؟
- ألا أخاف.

- إذن لن يكون أقوى الناس إلا من لا يخاف.
- أليس كذلك؟

- لا .

قال الحكيم:

- أقوى الناس ليس من لا يخاف، بل من لا يسمح لخوفه أن يقرر عنه دائماً.

- وهل القوة أن أنتصر؟

- أحياناً.

- وأن أغلب الآخرين؟

- أحياناً.

- وأن أكون قادراً على الرد؟

- أحياناً.

ثم قال:

- لكن هناك قوة أعظم.

- ما هي؟

- أن تكون قادراً على الرد، ثم تختار ألا ترد لأن الرد لن يصلح شيئاً.

سكت التلميذ.

فقال الحكيم:

- لا تجعل قدرتك على إيذاء الآخرين مقياساً لقوتك.

.....

قال التلميذ:

- لكنني أحياناً أشعر أنني ضعيف.

قال الحكيم:

- وماذا يعني الضعف بالنسبة إليك؟

- أن أحتاج إلى أحد.

- إذن كل إنسان ضعيف.

- لماذا؟

- لأن كل إنسان يحتاج إلى أحد.

ثم ابتسم.

- الطفل يحتاج إلى والديه، والمريض إلى من يعتني به، والعالم يحتاج إلى

من يعلمه شيئاً لا يعرفه، والقوي نفسه يحتاج إلى من يقول له الحقيقة حين

يخطئ.

قال التلميذ:

- إذن الحاجة ليست ضعفاً؟

- ليست كل حاجة ضعفاً.

ثم قال:

- الضعف الحقيقي أن تخاف من الاعتراف بحاجتك حتى تنهار وحدك.

سكت التلميذ.

قال الحكيم:

- لا تخجل من أن تقول: «لا أستطيع».

- لكن الناس قد يرونني ضعيفاً.

- دعهم يرون.

ثم أضاف:

- ليس مطلوباً منك أن تكون قوياً طوال الوقت. حتى الجبل له شقوق، ومع

ذلك لا يسميه أحد ضعيفاً.

.....

على الرغم من تأخر الوقت ورياح النعاس التي عبقت في رأسيهما كان

صراع الأسئلة مازال هائجاً في رأس التلميذ فقال:

- وإذا كنت قوياً وضعيفاً في الوقت نفسه، فماذا أفعل حين أخسر؟

نظر الحكيم إليه.

- ماذا خسرت؟

قال التلميذ:

- أشياء كثيرة.

- شخصاً؟

- نعم.

- حلماً؟

- نعم.

- وقتاً؟

- نعم.

- وربما نفسي القديمة؟

صمت التلميذ.

قال الحكيم:

- إذن أنت تعرف أن الخسارة ليست شيئاً واحداً.

- وهل نتعلم كيف نخسر؟

- لا.

- لماذا؟

- لأن كل خسارة لها شكلها الخاص.

ثم قال:

- لكننا نتعلم كيف نعيش بعدها.

قال التلميذ:

- وهل كل شيء يمكن تعويضه؟

- لا.

- إذن كيف أقبل الخسارة؟

قال الحكيم:

- لا تطلب من نفسك أن تعتبر الخسارة شيئاً جميلاً.

- وماذا أفعل؟

- اعترف بأنها خسارة.

ثم قال:

- ابك إن احتجت. اغضب إن احتجت. اصمت إن احتجت. لكن لا تجعل

خسارتك دليلاً على أن الحياة انتهت.

قال التلميذ:

- وماذا لو كانت الخسارة شيئاً لا أستطيع أن أنساه؟

قال الحكيم:

- ومن قال إن عليك أن تنسى؟

- أليس النسيان هو الشفاء؟

هز الحكيم رأسه.

- لا.

- فما الشفاء؟

قال:

- أن تتذكر دون أن تنكسر كل مرة.

ثم أضاف:

- ستبقى بعض الأشياء تؤلمك حين تتذكرها، لكن الألم لن يكون كما كان في البداية.

قال التلميذ:

- وكيف أعرف أنني تعافيت؟

ابتسم الحكيم.

- حين تستطيع أن تقول: «كان ذلك مؤلماً»، دون أن تقول بعدها: «ولهذا أنا الآن شخص آخر لا أستطيع تغييره».

.....

رفع التلميذ رأسه.

وقال:

- يا حكيم... أظن أنني كنت أعتقد أن الحياة ستصبح أسهل حين أتخلص من كل ما يؤلمني.

قال الحكيم:

- وهل تستطيع؟

- لا.

- إذن ربما ليست الحكمة أن تتخلص من الألم كله.

- فما الحكمة؟

نظر الحكيم إلى الطريق الممتد أمامهما.

وقال:

- أن تتعلم أي ألم يستحق أن تحمله، وأي ألم عليك أن تضعه على الطريق وتمضي.

ثم تابع سيره.

ومشى التلميذ إلى جواره.

ولأول مرة، لم يكن يمشي بحثاً عن مكان لا يتألم فيه.

كان يمشي بحثاً عن طريقة ألا يجعل الألم يمنعه من السير.

.....

لم يشعر كلاهما أنهما قد سهرتا طوال الليل حول النار وأن شمس الصباح قد بدأت في سلخ ظلام الليل، ولكن عندما داعبت نسيمات الصباح نعاس الأعين قاما من مجلسهما ليطردا ذاك اليباس منهما.
مضى التلميذ مع الحكيم في الطريق، وكانت الشمس قد ارتفعت قليلاً فوق الأشجار.

ظل صامتاً زمناً، ثم قال:

- يا حكيم...

- نعم؟

- تحدثنا عن الخسارة، وعن الألم، وعن أن يمضي الإنسان رغم ما فقده.
- نعم.

- لكن ماذا عن النجاح؟

ابتسم الحكيم.

- ماذا تريد أن تعرف عنه؟

- كيف أعرف أنني نجحت؟

قال الحكيم:

- وما النجاح في نظرك؟

فكر التلميذ قليلاً.

- أن أصل إلى ما أريد.

- وإذا وصلت؟

- أكون ناجحاً.

- وإذا اكتشفت أن ما وصلت إليه لم يكن ما تريده حقاً؟

سكت التلميذ.

قال الحكيم:

- لهذا يا بني، ليس كل من وصل ناجحاً، وليس كل من تأخر فاشلاً.

- فكيف أعرف النجاح إذن؟

قال الحكيم:

- حين يصبح ما وصلت إليه قريباً من الإنسان الذي أردت أن تكونه.

ثم أضاف:

- قد يصفق لك الناس وأنت تخسر نفسك، وقد يلومونك وأنت تنقذها.

قال التلميذ:

- إذن لا يكفي أن أنجح في نظر الناس؟
- النجاح الذي يحتاج إلى عيون الآخرين كي يثبت وجوده، نجاح هش.
- وهل المال نجاح؟
- ابتسم الحكيم.
- المال أداة.
- وليس غاية؟
- قد يكون غاية لبعض الناس، لكن الخطر أن يتحول من وسيلة إلى مقياس لكل شيء.

قال التلميذ:

- أليس المال مهماً؟
- بالطبع.
- إذن لماذا يتحدث الناس عنه كأنه شيء سيئ؟
- قال الحكيم:
- المال ليس خيراً ولا شراً. الذي يحدد ذلك هو ما يفعله الإنسان به، وما يفعله المال بالإنسان.
- وما الذي يمكن أن يفعله المال بالإنسان؟
- قال الحكيم:
- قد يمنحه حرية، وقد يمنحه غروراً. قد يخفف عنه خوفاً، وقد يصنع له خوفاً جديداً. وقد يبدأ الإنسان في امتلاك المال، ثم يكتشف بعد سنوات أن المال هو الذي امتلكه.

قال التلميذ:

- وكيف أعرف أنني أصبحت عبداً للمال؟
- قال الحكيم:
- حين تبدأ بقياس قيمة الأشياء التي لا تُقاس به.
- مثل ماذا؟
- الوقت، والصداقة، والكرامة، والحب.
- ثم قال:

- إذا أصبحت مستعداً لأنّ تخسر شيئاً عزيزاً فقط كي لا تخسر مالاً، فاسأل

نفسك: من الذي يملك من؟

ظل التلميذ يفكر.

ثم قال:

- وماذا عن السلطة؟

نظر الحكيم إليه.

- لماذا تسأل عنها؟

- لأنني أرى أن الناس يتغيرون حين يصبح لهم نفوذ.

قال الحكيم:

- السلطة لا تغير الإنسان دائماً.

- ألا تغيره؟

- أحياناً تكشفه.

- كيف؟

قال الحكيم:

- حين لا يكون الإنسان قادراً على إيذاء أحد، قد يبدو متواضعاً لأنه لا يملك

القدرة على العكس.

ثم أضاف:

- أعطه القوة، وانظر ماذا يفعل بمن لا يستطيعون رد أذاه.

سأل التلميذ:

- إذن كيف أعرف الإنسان القوي؟

قال الحكيم:

- راقب طريقته في معاملة من لا يحتاج إليهم.

- لماذا؟

- لأنّ الإنسان قد يكون لطيفاً مع من يملك مصلحة عنده، ومهذباً مع من

يستطيع معاقبته، لكنك تعرف أخلاقه حقاً حين لا تكون له مصلحة في لطفه.

سكت التلميذ.

قال الحكيم:

- السلطة الحقيقية ليست أن تجعل الناس يخافون منك.

- فما هي؟

- أن يملك الناس القدرة على رفضك، ومع ذلك يختارون أن يثقوا بك.
- قال التلميذ:
- وهل يمكن أن يكون الإنسان ناجحاً وقوياً وغنياً... ثم يكون سيئاً؟
- بالطبع.
- إذن ما قيمة النجاح؟
- قال الحكيم:
- هنا يبدأ السؤال الأصعب.
- ما هو؟
- قال الحكيم:
- ماذا تفعل بما تملك؟

.....

- مشى الاثنان قليلاً.
- ثم قال التلميذ:
- يا معلم وماذا تقول لي عن الفشل؟
- قال الحكيم:
- لماذا تريد أن تسمع عنه الآن؟
- لأنني أخافه.
- لماذا؟
- لأنَّ الناس لا يرحمون الفاشل.
- قال الحكيم:
- الناس لا يخافون الفشل نفسه، بل يخافون أن يصبح الفشل تعريفاً لهم.
- وهل الفشل شيء ضروري؟
- ليس ضرورياً.
- إذن لماذا يقع فيه الجميع؟
- ابتسم الحكيم.
- لأنَّ الإنسان لا يتعلم المشي دون أن يسقط.
- لكن بعض الناس يفشلون مرات كثيرة.
- وربما يحتاجون إلى أن يتعلموا شيئاً لم يتعلموه بعد.
- قال التلميذ:

- وماذا لو فشلت في الشيء نفسه مراراً؟
- قال الحكيم:
- عندها لا يكفي أن تحاول أكثر.
- ماذا أفعل؟
- حاول أن تفهم أكثر.
- ثم قال:
- تكرار المحاولة بالطريقة نفسها ليس دائماً إصراراً. أحياناً يكون عناداً.
- سكت التلميذ.
- قال الحكيم:
- الفشل ليس دائماً علامة على أنك تسير في الطريق الخطأ، لكنه أيضاً ليس دائماً دليلاً على أن عليك الاستمرار.
- وكيف أعرف الفرق؟
- بأن تسأل: ماذا علّمني هذا الفشل؟
- وإذا لم يعلمني شيئاً؟
- فربما كنت منشغلاً بإثبات أنك لم تخسر، أكثر من انشغالك بفهم سبب خسارتك.
- قال التلميذ:
- وهل يمكن أن يكون الإنسان ناجحاً لأنه فشل؟
- قال الحكيم:
- يمكن.
- كيف؟
- إذا خرج من فشله وهو يعرف نفسه أكثر، ويعرف حدود قدرته، ويعرف ما يريد وما لا يريد.
- ثم قال:
- بعض النجاحات تفسد الإنسان، وبعض الخسارات تنقذه.
- قال التلميذ:
- هذه فكرة غريبة.
- الحياة مليئة بالأشياء التي تبدو غريبة حين ننظر إليها من لحظتها فقط.

سكت التلميذ طويلاً.

ثم قال:

- يا حكيم... ولكن ماذا لو كان الناس يكذبون عليّ؟ كيف أعرف الحقيقة؟

رفع الحكيم عينيه إليه.

وقال:

- أي حقيقة؟

- الحقيقة التي أعيش عليها.

ابتسم الحكيم.

- لو كان الأمر سهلاً، لما اختلف الناس كل هذا الاختلاف.

- إذن لا توجد حقيقة؟

- لا تقل ذلك.

ثم قال:

- وجود اختلاف الناس حول الحقيقة لا يعني أن الحقيقة غير موجودة.

- فكيف أبحث عنها؟

- لا تبدأ بالسؤال: «ما الذي أريد أن يكون صحيحاً؟»

- وماذا أسأل؟

- «ما الذي يمكن أن يكون صحيحاً، حتى لو لم يعجبني؟»

سكت التلميذ.

قال الحكيم:

- الإنسان لا يبحث عن الحقيقة دائماً. أحياناً يبحث عن شيء يبرر ما يريد

تصديقه.

- وكيف أعرف أنني أفعل ذلك؟

قال الحكيم:

- عندما تصبح مستعداً لسماع ما يزعجك، كما تسمع ما يوافقك.

ثم أضاف:

- الحقيقة لا تحتاج إلى أن تحبها كي تكون حقيقة.

.....

قال التلميذ:

- لكن الناس يقولون أشياء كثيرة.

- نعم.

- وكيف أميز الصادق من الكاذب؟

قال الحكيم:

- لا تصدق الكلام لأنه جميل، ولا تكذبه لأنه مؤلم.

- وماذا أفعل؟

- انظر إلى الأفعال.

- دائماً؟

- ليس دائماً.

ثم قال:

- لكن الكلمات يمكن أن تخدعك مرة، أما السلوك المتكرر فيكشف صاحبه

مع الوقت.

سأل التلميذ:

- وهل يمكن للإنسان أن يكذب على نفسه؟

ابتسم الحكيم بحزن.

- هذه أسهل الأكاذيب وأخطرها.

قال التلميذ:

- كيف؟

قال الحكيم:

- لأنك حين تكذب على نفسك، لا تحتاج إلى إقناع أحد.

ثم سكت.

- قد تعرف أنك أخطأت، ثم ت اخترع لنفسك ألف سبب كي لا تعترف.

وقد تعرف أنك لا تحب شيئاً، ثم تقنع نفسك بأنك اعتدت عليه.

وقد تعرف أنك تخاف، ثم تسمي خوفك حكمة.

وقد تعرف أنك متعلق، ثم تسمي تعلقك وفاءً.

قال التلميذ:

- وكيف أنجو من ذلك؟

قال الحكيم:

- بأن تكون قادراً على أن تقول لنفسك: «ربما أكون مخطئاً».
- أليست هذه كلمة صعبة؟
- على المتكبر، نعم.

.....

مضى وقت طويل قبل أن يتكلم التلميذ مرة أخرى.
ثم قال:

- حدثني عن الصمت.
- ابتسم الحكيم.
- بعد كل هذا الكلام؟
- نعم.
- قال الحكيم:
- الصمت ليس دائماً غياب الكلام.
- فما هو؟
- أن تعرف أن الكلام لن يضيف شيئاً، فتختار ألا تتكلم.
- وهل الصمت دائماً حكمة؟
- لا.

- متى يكون خطأ؟

قال الحكيم:

- حين يكون الكلام واجباً، وتختبئ خلف الصمت.
- مثل ماذا؟

- حين ترى ظلماً وتستطيع أن تشهد، ثم تصمت خوفاً. حين يجرحك أحد وتحتاج إلى أن تضع حداً، ثم تسمي عجزك صبراً. حين يحتاج منك من تحبه كلمة، وتبخل بها لأنك تظن أنه يعرف.

ثم قال:

- ليس كل صمت فضيلة.

سأل التلميذ:

- ومتى يكون الصمت حكمة؟

قال الحكيم:

- حين يكون الكلام مجرد رغبة في الانتصار، لا رغبة في الإصلاح.

قال التلميذ:

- وكيف أعرف متى أتكلم ومتى أصمت؟

قال الحكيم:

- اسأل نفسك قبل أن تتكلم: هل أقول هذا لأنني أريد أن أصلح شيئاً، أم لأنني

أريد أن أنتصر؟

- وإذا كان الثاني؟

- فاصمت حتى تعرف لماذا تحتاج إلى الانتصار.

سكت التلميذ.

ثم قال:

- أظن أنني تكلمت كثيراً لأثبت أنني على حق.

قال الحكيم:

- كلنا فعلنا.

- وهل الحكيم لا يفعل؟

ضحك الحكيم.

- الحكيم ليس شخصاً تخلص من عيوب البشر يا بني. الحكيم شخص يعرف

عيوبه قبل أن يتهم الآخرين بها.

كان الطريق قد بدأ ينحدر نحو الوادي.

قال التلميذ:

- إذاً ما الحكمة؟

توقف الحكيم.

نظر إلى التلميذ، ثم إلى الطريق.

وقال:

- الحكمة ليست أن تعرف أشياء كثيرة.

- فما هي؟

- أن تعرف أي شيء يستحق أن تعرفه، وأي شيء تستطيع أن تتركه دون

أن يؤذيك جهلك به.

- وهل الحكيم لا يخطئ؟

- بل يخطئ.

- ولا يغضب؟

- يغضب.

- ولا يخاف؟

- يخاف.

- ولا يحزن؟

- يحزن.

نظر التلميذ إليه بدهشة.

- فما الذي يجعله حكيماً إذن؟

ابتسم الحكيم.

وقال:

- أنه لا يجعل كل شعور يقوده.

ثم أضاف:

- يعرف متى يتكلم، ومتى يصمت. متى يمسك، ومتى يترك. متى يقاتل،

ومتى ينسحب. متى يقول «أعرف»، ومتى يقول «لا أعرف».

سكت قليلاً.

- ويعرف أن الإنسان قد يقضي عمره كله في جمع الإجابات، ثم يكتشف أن

السؤال الأهم كان: «كيف أعيش؟»

قال التلميذ:

- وهل وصلت أنت إلى الحكمة؟

نظر الحكيم إليه، وضحك.

- لو قلت لك نعم، لشككت في حكمتي.

ضحك التلميذ.

ثم عاد الحكيم إلى السير.

وقال:

- كلما ظننت أنك وصلت، فاعلم أنك بدأت تضل الطريق.

- لماذا؟

- لأن الحكمة لا تجعلك تشعر أنك فوق الناس.

ثم التفت إليه وقال:

- بل تجعلك أكثر رحمة بضعفهم، لأنك تكتشف ضعفك.

ظل التلميذ صامتاً.

وبعد خطوات قال:

- يا حكيم...

- نعم؟

- أظن أنني كنت أريد منك أن تعلمني كيف أعيش.

ابتسم الحكيم.

- وما الذي تعلمته؟

فكر التلميذ طويلاً.

ثم قال:

- أنك لم تعلمني كيف أعيش.

- وماذا فعلت إذًا؟

قال التلميذ:

- جعلتني أسأل نفسي قبل كل خطوة: لماذا أفعلها؟

توقف الحكيم.

ثم نظر إليه طويلاً.

وقال:

- الآن فقط... بدأ الحوار.

ومضيا في الطريق.

ولم يكن التلميذ يعرف إلى أين سيصل.

لكنه، للمرة الأولى، لم يعد يطلب من الطريق أن يخبره نهايته.

كان يكفي أن يعرف الخطوة التالية.

.....

ظل التلميذ يمشي إلى جوار الحكيم، وقد طال صمته هذه المرة.

كان يفكر في كل ما سمعه منه، وفي السنوات التي لا بد أن تكون قد صنعت

هذا الرجل الذي أمامه.

ثم قال:

- يا حكيم...

- نعم؟

- من علّمك كل هذا؟
- ابتسم الحكيم، وقال:
- الحياة.
- هز التلميذ رأسه.
- هذا ما يقوله الجميع.
- ضحك الحكيم بهدوء.
- لا. الحياة لم تعلمني شيئاً.
- نظر إليه التلميذ باستغراب.
- فقال الحكيم:
- الذي علّمني كان ما فعلته بي الحياة، وما فعلته أنا بما فعلته بي.
- سكت التلميذ قليلاً، ثم قال:
- وما الذي فعلته بك الحياة؟
- أبطأ الحكيم خطواته.
- أشياء كثيرة.
- مثل ماذا؟
- أعطتني أشياء ظننت أنني سأحتفظ بها إلى الأبد، ثم أخذتها.
- وأعطتك غيرها؟
- نعم.
- وهل كانت تلك الأشياء أفضل؟
- ابتسم الحكيم.
- لم أكن أعرف ذلك وقتها.
- ثم أضاف:
- أعطتني أشخاصاً أحببتهم، ثم علّمتني أن الحب لا يعني أن يبقى من نحبّ إلى الأبد. وأعطتني فرصاً ظننت أنها فرصتي الأخيرة، ثم اكتشفت أن بعضها لم يكن إلا طريقاً إلى شيء آخر.
- قال التلميذ:
- وهل جعلتك الحياة حكيماً؟
- هز الحكيم رأسه.
- لا.

- إذن ماذا جعلتك؟
- نظر الحكيم إلى الطريق أمامه وقال:
- جعلتني أقل يقيناً بنفسِي.
- استغرب التلميذ.
- أليست الحكمة أن تصبح أكثر يقيناً؟
- في بعض الأشياء، نعم. أما في الإنسان... فكلما عرفت أكثر، ازدادت حذراً من أحكامك.
- ثم قال:
- كنت في صغري أظن أنني أعرف الناس. ثم عرفت أنني بالكاد أعرف نفسي.
- ومتى اكتشفت ذلك؟
- توقف الحكيم لحظة، ثم قال:
- بعد خطأ كبير.
- رفع التلميذ رأسه بسرعة.
- أخطأت؟
- ابتسم الحكيم.
- كثيراً.
- لكنك تتحدث عن الأخطاء وكأنك تعرف كيف تتجنبها.
- لأنني ارتكبت بعضها.
- وهل ندمت عليها؟
- على بعضها.
- وعلى بعضها الآخر؟
- قال الحكيم:
- ندمت لأنني ندمت عليها.
- لم يفهم التلميذ.
- فقال الحكيم:
- هناك أخطاء تؤلمك لأنك فعلتها. وأخطاء أخرى تؤلمك لأنك تعرف الآن أنك لم تكن لتفعلها لو كنت تعرف ما تعرفه اليوم.
- وهذا يجعل الندم أصعب.

- نعم.
- قال التلميذ:
- وما أكبر خطأ ارتكبته؟
- سكت الحكيم طويلاً.
- حتى ظن التلميذ أنه لن يجيب.
- ثم قال:
- وثقت بمن لم يكن يستحق ثقتي.
- قال التلميذ:
- وخانك؟
- أجاب الحكيم:
- ربما.
- ربما؟
- لأنني لم أعرف يومها إن كان قد خانني، أم أنني كنت قد بنيت حوله صورة لم يكن هو مسؤولاً عنها.
- سكت التلميذ.
- ثم قال:
- أليس هذا تبريراً له؟
- لا.
- إذن لماذا تدافع عنه؟
- قال الحكيم:
- لا أدافع عنه. أحاول أن أكون عادلاً وأنا أتذكر.
- ثم أضاف:
- حين يؤلمنا أحد، يا بني، نعيد كتابة قصته في رؤوسنا بطريقة تجعلنا أبرياء تماماً وهو مذنب تماماً. وربما يكون ذلك مريحاً، لكنه ليس دائماً الحقيقة.
- قال التلميذ:
- وهل كنت مخطئاً؟
- ابتسم الحكيم.
- نعم.

- وهو؟
- ربما كان مخطئاً أيضاً.
- وهل تستطيع أن تقول ذلك بعد كل هذه السنوات؟
- الآن فقط أستطيع.
- ثم قال التلميذ:
- هل كان ذلك أكثر شيء ندمت عليه؟
- صمت الحكيم.
- ثم قال:
- لا.
- فما الذي ندمت عليه أكثر؟
- توقف الحكيم تماماً.
- نظر إلى التلميذ، وكانت في عينيه هذه المرة مسافة طويلة من الزمن.
- وقال:
- أنني عرفت متأخراً أنني كنت أملك فرصة لإنقاذ شيء أحببته... ولم أفعل.
- لماذا؟
- لأنني كنت أظن أن التراجع ضعف.
- وماذا حدث؟
- قال الحكيم:
- تركته يرحل.
- ومن كان؟
- لم يجب الحكيم.
- عاد إلى السير.
- مشى التلميذ خلفه خطوات، ثم قال:
- أكان صديقاً؟
- هز الحكيم رأسه.
- لا.
- إذاً من؟
- ظل الحكيم صامتاً.
- وكان صمته هذه المرة مختلفاً.

لم يكن صمت رجل لا يريد الكلام، بل صمت رجل يعرف أن بعض الكلمات إذا خرجت، فلن تعود قادرة على الاختباء.

قال التلميذ برفق:

- هل كنت تحبه؟

توقف الحكيم.

وبقي ظهره إلى التلميذ.

ثم قال:

- نعم.

ولم يزد.

.....

المحطة الثانية: أثقال الذاكرة وظلال الغد

كانت أقدامهم قد قادتهم إلى مكان أبعد عن النار، وبدأت عصافير الدوري تطير بين الأغصان وعجلات الحياة تدبُّ في الأرجاء. وانشغل كلاهما في النظر إلى طائر الشحرور وهو يغرد فوق غصن قريب،
مرت لحظات طويلة من الصمت، ثم كسر الحكيم ذاك الصمت وقال للتلميذ:
دعنا ننام الآن لنعيد شحن أنفسنا من جديد.
لم تدم لحظات النوم طويلاً فقد قاطعها قلقٌ قديم لم يزل بزوال نبعه.
قام الحكيم من فراشه وبدأ يمشي في القريب، أشعل النار من جديد
جلس الحكيم تحت شجرة قريبة، وأشار إلى التلميذ الذي ايقظته حركات
الحكيم من النوم أن يجلس بجانبه.
قال التلميذ:

- لماذا لم تخبرني بهذا من قبل؟

نظر الحكيم إليه.

عماذا تتحدث، وهل ما زلت تفكر في حديث البارحة

- طبعاً فالحديث عن الحبّ دائماً ما يشغل العقول.

فعلاً هو كذلك قال الحكيم ثم أردف قائلاً:

- لأنني كنت أعلمك ما تعلمته، لا ما حدث لي.

- وما الفرق؟

- كبير.

ثم قال:

- لو حكيت لك قصتي منذ البداية، ربما أخذت كلماتي على أنها دروس رجل

عاش أكثر منك.

- أليست كذلك؟

ابتسم الحكيم.

- لا أريدك أن تتعلم مني لأنني أكبر منك.

- فلماذا؟

قال الحكيم:

- أريدك أن تتعلم لأنك ترى الحقيقة، سواء قلتها أنا أو قالها لك رجل في مثل

عمر.

ثم سكت قليلاً.

وقال:

- والحقيقة أنني لم أصبح حكيماً لأنني عشت طويلاً.

- فما السبب؟

نظر الحكيم إلى عينيه وقال:

- لأنني أخطأت طويلاً.

ثم ابتسم ابتسامة حزينة.

- وما زلت أخطئ.

قال التلميذ:

- وهل هذا ما يجعلني أثق بك؟

- لا تثق بي لأنني أخطأت.

- إذن؟

- ثق فيما أقوله فقط حين تجده صحيحاً، حتى لو جاء مني.

ثم نظر الحكيم إلى الطريق.

وقال:

- أما ما حدث لي... فله بقية لم أسألك بعد إن كنت مستعداً لسماعها.

قال التلميذ:

- أنا مستعد.

لكن الحكيم لم يجب.

وبقي ينظر إلى البعيد، كأن الماضي الذي حاول طويلاً أن يتركه خلفه، بدأ

هذه المرة يسير نحوه.

.....

ظل الحكيم صامتاً، وعيناه معلقتان بشيء بعيد لا يراه التلميذ.

ثم قال:

- كنت في ذلك الوقت أظن أن الحبّ شيء يشبه القوة.

قال التلميذ:

- وكيف؟

- كنت أظن أن من يحبّ يجب أن يتمسك. أن الرحيل هزيمة، وأن التراجع اعتراف بالخسارة، وأن الإنسان إذا أحبّ شيئاً فعليه أن يفعل كل ما يستطيع كي لا يفقده.

- ثم اكتشفت أن ذلك خطأ؟

- اكتشفت أن بعض الأشياء لا تُحفظ بالتمسك بها.

قال التلميذ:

- ومن كانت؟

ابتسم الحكيم، لكن ابتسامته لم تصل إلى عينيه.

- امرأة.

ظل التلميذ صامتاً.

قال الحكيم:

- لم تكن أجمل امرأة رأيتها، ولا أكثرهن شبهاً بما كنت أبحث عنه. لكنها كانت الوحيدة التي جعلتني أشعر أنني لست مضطراً لأنّ أكون الشخص الذي يتوقعه مني الآخرون.

- وهل أحببتها؟

- نعم.

- وهل أحبتك؟

رفع الحكيم عينيه إليه.

- كانت تحبني بطريقتها.

- وهذا يعني؟

- يعني أن الحبّ لم يكن المشكلة.

سكت قليلاً، ثم قال:

- أنا كنت المشكلة.

قال التلميذ:

- ماذا فعلت؟

- كنت أريد أن أضمن المستقبل قبل أن أعيش الحاضر.

- وكيف؟

- كنت أريد منها أن تبقى، وأن أكون متأكداً من بقائها. كنت أريد وعداً لا يتغير، وحياة لا تفاجئني، وطريقاً أعرف نهايته قبل أن أخطو فيه.

- وهل طلبت منها ذلك؟
- أكثر مما ينبغي.
- وماذا قالت؟
- ابتسم الحكيم بحزن.
- قالت لي يوماً: «أنت لا تحبني كما أنا، أنت تحب فكرة أنني لن أرحل.»
- صمت التلميذ.
- قال الحكيم:
- غضبت منها يوماً.
- ولماذا؟
- لأنني ظننت أنها لا تفهم حبي.
- وبعد ذلك؟
- فهمت أنها كانت تفهمه أكثر مني.

.....

- قال التلميذ:
- ولماذا رحلت؟
- نظر الحكيم إلى يديه.
- لأنني جعلت حبنا مكاناً ضيقاً لا يتسع لنا.
- هل طلبت منك أن تتغير؟
- طلبت مني شيئاً أصعب.
- ماذا؟
- أن أترك لها حرية أن تكون نفسها.
- ولم تستطع؟
- لم أستطع.
- قال الحكيم:
- كنت أخاف أن أفقدها، فبدأت أطلب منها أشياء تجعل بقاءها أشبه بالسجن.
- وهل رحلت بسبب ذلك؟
- في النهاية، نعم.
- وحاولت إيقافها؟
- حاولت.

- وبقيت؟
- لا.
- قال التلميذ:
- هل كرهتها؟
- في البداية، حاولت.
- ثم؟
- ثم اكتشفت أنني كنت غاضباً منها لأنها فعلت الشيء الذي لم أملك الشجاعة لفعله أنا.
- وما هو؟
- قال الحكيم:
- أن أقول: «هذا لا يجعلنا سعداء، فلنترك بعضنا دون أن نحول الحب إلى عداوة.»
- سكت التلميذ طويلاً.
- ثم قال:
- وهل ندمت لأنك تركتها ترحل؟
- أجاب الحكيم:
- ندمت لأنني لم أتركها ترحل بسلام.
-
- ظل التلميذ ينظر إليه.
- ثم قال:
- وهل رأيتها بعد ذلك؟
- مرة واحدة.
- ماذا حدث؟
- لم يحدث شيء.
- كيف؟
- ابتسم الحكيم.
- أحياناً يكون أعظم ما يحدث بين شخصين هو ألا يحدث شيء.
- ماذا تقصد؟
- التقينا صدفة بعد سنوات.

- وماذا قلت لها؟
- لم أقل شيئاً.
- ولماذا؟
- لأنني كنت قد تعلمت أخيراً أن بعض الاعتذارات تأتي متأخرة إلى درجة يصبح فيها الكلام أنانية.
- هل كانت غاضبة؟
- لا أعرف.
- ألم تسألها؟
- لا.
- لماذا؟
- قال الحكيم:
- لأنني لم أعد أريد منها أن تمنحني راحة ضميري.
- سكت التلميذ.
- ثم قال:
- وماذا شعرت حين رأيته؟
- ابتسم الحكيم.
- شعرت أنني أحببتها حقاً.
- بعد كل هذه السنوات؟
- ربما لهذا السبب.
- كيف؟
- قال الحكيم:
- لأنني في تلك اللحظة لم أرد منها شيئاً.
- ثم أضاف:
- لا أن تعود، ولا أن تسامحني، ولا أن تندم، ولا حتى أن تتذكرني.
- وماذا أردت؟
- أن تكون بخير.
-
- قال التلميذ:
- وهل هذا هو الحب؟

نظر الحكيم إليه طويلاً.

ثم قال:

- لا أعرف.

- كيف لا تعرف؟

ابتسم.

- كنت أظن أنني أعرف الحبّ حين كنت شاباً. ثم اكتشفت أنني كنت أعرف

حاجتي إلى الحب.

سكت.

- وبعد سنوات، حين لم أعد أريد منها شيئاً، ظننت أنني عرفت الحب.

- وهل عرفت؟

- لا أدري.

ثم قال:

- ربما لا ينبغي للإنسان أن يثق كثيراً في قدرته على تعريف الأشياء التي

تغيّره.

قال التلميذ:

- لكنك قلت لي من قبل إن الحبّ أن تريد للآخر أن يكون بخير.

- نعم.

- حتى إن لم يكن معك؟

- خصوصاً إن لم يكن معك.

خفض التلميذ رأسه.

وبدا أن الجملة أصابته في مكان لم يخبر الحكيم عنه.

.....

ثم قال التلميذ:

- يا حكيم... لماذا لم تخبرني بهذا من قبل؟

قال الحكيم:

- لأنك لم تكن مستعداً.

- وكيف عرفت؟

- لأنك كنت تسألني عن الحبّ كما يسأل الإنسان عن شيء يريد أن يحصل

عليه.

سكت التلميذ.

قال الحكيم:

- الآن تسألني عنه كما يسأل من يخاف أن يفقده.

- وما الفرق؟

- الأول يريد أن يعرف كيف يمسك. والثاني بدأ يتعلم كيف يحبّ دون أن يمسك.

قال التلميذ:

- وهل كل حبّ ينتهي بالرحيل؟

- لا.

- إذن لماذا حدث لك؟

قال الحكيم:

- لأنّ بعض الناس يأتون إلى حياتنا ليقبوا، وبعضهم يأتون ليغيرونا.

- وأيهما كانت؟

قال الحكيم:

- كانت من النوع الذي غيّرني.

ثم ابتسم.

- لكنها لم تعرف ذلك.

- لماذا؟

- لأنني لم أكن قد تغيرت حين رحلت.

ظل التلميذ صامتاً.

ثم قال:

- وهل سامحت نفسك؟

لم يجب الحكيم.

رفع رأسه إلى السماء، وبقي طويلاً ينظر إليها.

ثم قال:

- ليس بعد.

استغرب التلميذ.

- لكنك قلت لي إن علينا أن نسامح أنفسنا.

- قلت لك إن علينا أن نحاول.
- وما الذي يمنعك؟
- قال الحكيم:
- بعض الأخطاء لا تحتاج إلى أن تنساها كي تسامح نفسك.
- فماذا تحتاج؟
- أن تتأكد أنك لم تعد الشخص الذي ارتكبتها.
- ثم نهض ببطء.
- وقال:
- وربما لهذا السبب بقيت أتحدث معك كل هذه السنوات.
- نظر إليه التلميذ.
- لماذا؟
- قال الحكيم:
- لأنني كلما رأيتك تسأل، كنت أتذكر الشاب الذي كنت عليه.
- وهل تراني مثلك؟
- ابتسم الحكيم.
- لا.
- ثم سار خطوتين.
- وهذا أكثر ما أتمناه.
- تبعه التلميذ.
- وبعد صمت قصير قال:
- هل تخشى أن ارتكب أخطاءك نفسها؟
- توقف الحكيم، وقال:
- أخشى أكثر أن تحاول أن تتجنب أخطائي كلها.
- لماذا؟
- لأنك إن عشت حياتك وأنت تحاول ألا تخطئ، ستعيشها خائفاً.
- ثم نظر إليه وقال:
- أريدك فقط أن تتعلم شيئاً لم أتعلمه إلا متأخراً.
- ماذا؟
- قال الحكيم:

- حين تحب... لا تجعل خوفك من الفقد يؤدي ما تحب.
ثم تابع سيره.
أما التلميذ، فظل خلفه صامتاً.
وكان في قلبه سؤال جديد.
لكنه هذه المرة لم يسأل عنه.
لأنه بدأ يفهم أن بعض الأسئلة تحتاج أن تنضج في الصمت قبل أن تجد طريقها إلى الكلام.

المحطة الثالثة: حين تسقط الاسماء

مضى يومان، ولم يسأل التلميذ الحكيم عن ذلك السؤال الذي ظل معلقاً في صدره.

كان يعرف أن الحكيم ترك له باباً مفتوحاً، لكنه لم يجرؤ على الدخول منه. وفي مساء اليوم الثالث، جلسا كعادتهما قرب النار. قال التلميذ:

- يا حكيم...

- نعم؟

- هل يمكن للإنسان أن يسامح نفسه حقاً؟
نظر الحكيم إليه، وكأنه كان ينتظر هذا السؤال. قال:

- لماذا تريد أن تسامح نفسك؟

- لأنني أخطأت.

- كلنا نخطئ.

- لكن بعض أخطائنا لا نستطيع إصلاحها.

قال الحكيم:

- وهذه هي أصعب الأخطاء.

سكت التلميذ.

ثم قال:

- ماذا أفعل بشيء لا أستطيع إصلاحه؟

قال الحكيم:

- أولاً، توقف عن البحث عن طريقة تعيد الماضي.

- ولماذا؟

- لأنك لن تجدها.

ثم أضاف:

- هناك أشياء يمكن إصلاحها، وأشياء يمكن الاعتذار عنها، وأشياء يمكن

التعويض عنها... وهناك أشياء لا يبقى أمامك إلا أن تتعلم كيف تحمل

مسؤوليتها.

- وهل هذا هو الغفران؟

- جزء منه.
- وما الجزء الآخر؟
- قال الحكيم:
- أن تتوقف عن استخدام خطئك كعذر كي تكره نفسك إلى الأبد.
- رفع التلميذ عينيه إليه.
- قال الحكيم:
- هناك من يظن أن معاقبة نفسه طويلاً دليل على ندمه.
- أليست كذلك؟
- لا.
- لماذا؟
- لأنَّ الندم الحقيقي لا يقاس بمدة الألم، بل بما تغيّر بعده.
- ثم قال:
- إذا أخطأت في حق إنسان، ثم بقيت تقول لنفسك كل يوم: «أنا سيئ»، فما الذي استفدت؟
- أشعر أنني أدفع الثمن.
- ومن قال إن الألم وحده يعيد الحق؟
- سكت التلميذ.
- قال الحكيم:
- إن استطعت أن تصلح، فأصلح. وإن استطعت أن تعتذر، فاعتذر. وإن استطعت أن تعوض، فعوض. ثم بعد ذلك... تعلم.
- وإذا لم أستطع؟
- قال الحكيم:
- عندها اجعل ما بقي من حياتك دليلاً على أنك فهمت خطأك.

.....
قال التلميذ:

- وهل يكفي أن أتغير؟
- لا أعرف.
- كيف لا تعرف؟
- قال الحكيم:

- لأننا لا نملك دائماً حق طلب الغفران من الآخرين.
- حتى لو تغيرنا؟
- حتى لو تغيرنا.
- إذن ماذا أفعل؟
- لا تجعل تغيرك صفقة.
- صفقة؟
- لا تقل: «لقد أصبحت أفضل، إذن يجب أن تسامحوني.»
- ثم قال:
- غير نفسك لأنّ هذا هو الصواب، لا لأنك تريد أن تشتري به راحة الآخرين أو غفرانهم.

.....

- ظل التلميذ صامتاً.
- ثم قال:
- ماذا نفعل بالأشياء التي لا نستطيع إصلاحها؟
- نظر الحكيم إلى النار.
- نحزن عليها.
- فقط؟
- ونقبل أنها أصبحت جزءاً من الماضي.
- لكن قبولها مؤلم.
- بالطبع.
- إذن لماذا يسمونه قبولاً؟
- ابتسم الحكيم.
- لأنك لا تعود تقاوم الحقيقة.
- وهل يعني ذلك أنني أوافق عليها؟
- لا.
- أن أحبها؟
- لا.
- أن أقول إنها كانت عادلة؟
- لا.

ثم قال:

- القبول يعني فقط أن تتوقف عن قول: «كان يجب ألا يحدث»، بعدما حدث.
سكت التلميذ.

قال الحكيم:

- يمكنك أن تكره ما حدث، وأن تتمنى لو لم يحدث، وأن تتمنى لو كنت
اخترت غير ذلك... لكن لا تجعل أمنيتك أن يعيش الماضي من جديد.

.....

قال التلميذ:

- وهل علينا دائماً أن نمضي؟

سأل الحكيم:

- إلى أين؟

- إلى الأمام.

- ومن قال إن السير إلى الأمام يعني دائماً أن تترك كل شيء خلفك؟

- أليس هذا معنى المضي؟

قال الحكيم:

- أحياناً نمضي بأن نحمل معنا شيئاً تعلمناه.

- مثل ماذا؟

- ذكرى شخص أحببناه. درساً تعلمناه من خسارة. خطأ أصبح جزءاً من
نفسنا.

ثم قال:

- المضي لا يعني أن تمحو الطريق الذي قطعته.

- فما الذي يعنيه؟

- ألا تجعل الطريق القديم يمنعك من رؤية الطريق الجديد.

.....

قال التلميذ:

- وهل هناك أشياء يجب أن نبقى عندها؟

ابتسم الحكيم.

- نعم.

- مثل ماذا؟

- عند إنسان يحتاجك.
- وعند حلم يستحق المحاولة.
- وعند خطأ يحتاج إلى إصلاح.
- وعند حقيقة تخاف مواجهتها.
- ثم أضاف:
- لكن لا تبقى في مكان فقط لأنك اعتدت عليه.
- قال التلميذ:
- وكيف أعرف أنني بقيت لأنني أريد، لا لأنني أخاف الرحيل؟
- قال الحكيم:
- تخيل أنك لن تخسر شيئاً إذا رحلت.
- وماذا بعد؟
- راقب أول شعور يأتيك.
- الخوف؟
- اسأل: ممّ تخاف؟
- وإذا كان الجواب أنني أخاف أن أندم؟
- قال الحكيم:
- لا تجعل خوفك من الندم سبباً لندم جديد.

.....

- قال التلميذ:
- ومتى يعرف الإنسان أنه أصبح مستعداً للرحيل؟
- صمت الحكيم.
- ثم قال:
- حين يفهم أن الرحيل ليس دائماً هروباً.
- وما الذي يكونه أحياناً؟
- احتراماً لنفسه.
- حتى لو كان المكان الذي يرحل عنه يحبه؟
- نعم.
- وحتى لو أحبّ أشخاصاً فيه؟
- نعم.

- وحتى لو كان سيشتاق إليهم؟
- الاشتياق لا يعني أن عليك العودة.
- ثم قال:
- أحياناً تحبّ مكاناً، لكنك تعرف أنك لم تعد تنتمي إليه.
- وكيف أعرف؟
- قال الحكيم:
- حين تصبح محاولتك للبقاء فيه محاولة لتكون شخصاً لم تعد أنت.

.....

- سكت التلميذ طويلاً.
- ثم قال:
- وهل الرحيل دائماً قرار؟
- قال الحكيم:
- لا.
- ماذا تقصد؟
- بعض الرحيل يحدث لنا دون أن نختاره.
- كالموت؟
- الموت، والفقد، وتغير الناس، وتغيرنا نحن.
- قال التلميذ:
- وهل يمكن أن يرحل الإنسان عن شخص دون أن يرحل عنه جسداً؟
- قال الحكيم:
- كثيراً.
- كيف؟
- حين يبقى الجسد، لكن القلب لم يعد في المكان نفسه.
- وهل هذا خيانة؟
- قال الحكيم:
- ليس دائماً.
- ثم أضاف:
- أحياناً يكون الصدق أقسى من الخيانة، لكنه أقل ظلاماً.

.....

قال التلميذ:

- وماذا لو كنت أستطيع البقاء، لكنني أعرف أنني لن أكون سعيداً؟
نظر الحكيم إليه.

وقال:

- السعادة ليست دائماً المقياس.

- ماذا يكون؟

- الصدق.

- أليس من حقي أن أكون سعيداً؟

- بالطبع.

- إذن لماذا لا أختار السعادة؟

قال الحكيم:

- لأنَّ بعض السعادات قصيرة، وبعض القرارات الصحيحة مؤلمة.

ثم قال:

- لا تجعل «أريد أن أكون سعيداً» عذراً لتهرب من مسؤولياتك، ولا تجعل
«يجب أن أتحمل» عذراً لتعذب نفسك.

سكت التلميذ.

ثم قال:

- إذن كيف أعرف؟

ابتسم الحكيم.

- ستظل تسأل.

- وهذا كل شيء؟

- لا.

- ماذا أفعل؟

قال الحكيم:

- تسأل، ثم تختار، ثم تتحمل نتيجة اختيارك.

.....

كانت النار قد خفت.

مد الحكيم يده، وأعاد ترتيب الحطب.

ثم قال:

- هناك شيء آخر يجب أن تعرفه.
- ما هو؟
- أحياناً لا تكون المشكلة في أنك لا تعرف متى ترحل.
- فما المشكلة؟
- أنك تنتظر أن يصبح الرحيل سهلاً.
- وهل يصبح؟
- ضحك الحكيم.
- لا.
- أبداً؟
- بعض الرحيل يبقى مؤلماً حتى بعد سنوات.
- إذن كيف نرحل؟
- قال الحكيم:
- نرحل ونحن نتألم، إذا كان البقاء يؤلم أكثر.
- نظر التلميذ إلى النار.
- ثم قال:
- وهل هذا ما فعلته معها؟
- سكت الحكيم.
- عرف التلميذ أنه عاد إلى الجرح القديم.
- وبعد لحظة قال الحكيم:
- لا.
- ماذا فعلت؟
- تأخرت.
- وهل كنت ستفعل الشيء نفسه لو عاد بك الزمن؟
- فكر الحكيم طويلاً.
- ثم قال:
- لا أعرف.
- لكنك قلت إنك تعلمت.
- ابتسم الحكيم.

- تعلمت أن بعض الأسئلة لا يملك الإنسان شجاعة الإجابة عنها إلا بعد أن يصبح من المستحيل أن يختبرها.

.....

رفع التلميذ رأسه.

- وهل تشعر بالندم الآن؟

قال الحكيم:

- نعم.

- وهل ما زلت تتمنى لو عادت؟

أغمض الحكيم عينيه لحظة.

ثم قال:

- أحياناً.

- وماذا تفعل حين تأتيك هذه الأمنية؟

فتح عينيه.

وقال:

- أذكر أنها ليست أمنية حقيقية.

- كيف؟

- لأنني لا أريد أن تعود إلى حياتي القديمة.

- ماذا تريد إذاً؟

قال الحكيم:

- أريد فقط لو كان بإمكانني أن أعود أنا إلى ذلك اليوم... لأقول لنفسي ما

أعرفه الآن.

قال التلميذ:

- وماذا كنت ستقول؟

نظر الحكيم إليه.

وقال:

- لا تحاول أن تحتفظ بمن تحبّ بالخوف.

ثم سكت.

- وإذا اضطررت يوماً إلى الاختيار بين أن تحبّ شخصاً كما هو، أو أن

تبقيه كما تريد... فاتركه يكون نفسه.

كانت هذه أول مرة يرى فيها التلميذ الحكيم يشيح بوجهه كي يخفي عينيه.
ولم يسأله عن السبب.
فقد تعلم شيئاً آخر تلك الليلة:
أن بعض الدموع ليست ضعفاً.
وأن الحكيم، مهما عرف، يبقى إنساناً.

.....

المحطة الرابعة: وجع الخسارة وسؤال الشفاء

في اليوم التالي، لم يكن التلميذ قد ابتعد كثيراً عن المكان الذي عاش فيه مع الحكيم.

عاد عند الظهيرة، وجلس بالقرب منه.

كان الحكيم يصلح مقبض سكين قديم، بينما ظل التلميذ صامتاً يراقب يديه. ثم قال:

- يا حكيم...

- نعم؟

- هل هناك كذبة يمكن أن تكون أرحم من الحقيقة؟

توقف الحكيم عن العمل.

رفع عينيه إليه وقال:

- نعم.

تفاجأ التلميذ.

- حقاً؟

- أحياناً.

- لكنك قلت لي إن الحقيقة لا تحتاج إلى أن نحبها كي تكون حقيقة.

- وما زلت أقول ذلك.

- إذن كيف يمكن للكذب أن يكون أرحم؟

قال الحكيم:

- لأنَّ الحقيقة شيء، وطريقة تقديمها شيء آخر.

- لم أفهم.

وضع الحكيم السكين جانباً.

- لو سألك رجل عن شيء مؤلم لا يملك القدرة على احتماله، وأجبتته بالحقيقة

بطريقة قاسية فقط لأنك تريد أن تقول: «أنا صادق»، فهل كنت صادقاً؟

- نعم.

- وهل كنت رحيماً؟

- لا.

- إذن الصدق وحده لا يجعل الإنسان جيداً.

سكت التلميذ.

ثم قال:

- لكنك قلت إن علينا ألا نكذب.
- قلت إن عليك ألا تستخدم الكذب لخداع الناس.
- وما الفرق؟
- كبير.

ثم أضاف:

- قد تختار ألا تقول كل ما تعرفه، وهذا ليس كذباً. وقد تغير الحقيقة عمداً كي تجعل إنساناً يصدق شيئاً غير صحيح، وهذا كذب.
- قال التلميذ:

- وإذا كان الكذب سيمنع أذى؟
- عندها يصبح السؤال أصعب.
- لماذا؟
- لأنَّ الإنسان يستطيع أن يجد لنفسه ألف سبب ليبرر الكذب إذا كان يريد أن يكذب.
- ثم ابتسم.
- لذلك لا تسأل فقط: «هل لدي سبب؟»
- ماذا أسأل؟
- اسأل: «هل كنت سأفعل الشيء نفسه لو لم أكن المستفيد منه؟»

.....

قال التلميذ:

- وهل كذبت أنت؟
- ضحك الحكيم.
- كثيراً.
- حتى الآن؟
- حتى الآن.
- وما أكبر كذبة قلتها؟
- فكر الحكيم قليلاً.
- ثم قال:
- قلت لنفسي إنني بخير، حين لم أكن كذلك.

- نظر إليه التلميذ.
- هذه ليست كذبة للآخرين.
 - لكنها كانت أخطر كذبة.
 - لماذا؟
 - لأنَّ الآخرين يستطيعون أن يكشفوا كذبك يوماً، أما أنت فقد تعيش عمرك كله داخل الكذبة التي صنعتها لنفسك.
- قال التلميذ:
- وهل صدقتها؟
 - لفترة طويلة.
 - وكيف اكتشفتها؟
 - حين بدأت أؤذي أشخاصاً لم يكونوا سبباً في ألمي.
- سكت التلميذ.
- قال الحكيم:
- عندها فهمت أن الإنسان الذي يرفض الاعتراف بجرحه، قد يحول جرحه إلى سلاح.

.....

- قال التلميذ:
- هل يجب أن نقول كل شيء لمن نحب؟
- قال الحكيم:
- لا.
 - لماذا؟
 - لأنَّ الحبَّ لا يلغي حق الإنسان في أن يحتفظ ببعض الأشياء لنفسه.
 - أليس إخفاء شيء عن شخص تحبه خيانة؟
 - ليس كل إخفاء خيانة.
 - كيف؟
- قال الحكيم:
- هناك فرق بين أن يكون لك سر، وأن تخفي حقيقة يحق للطرف الآخر أن يعرفها.
 - أعطني مثلاً.

- أن تحتفظ بذكرى قديمة لا تريد الحديث عنها، هذا شأنك.
- ثم قال:
- أما أن تعرف شيئاً يمس حياة شخص آخر وقراراته، ثم تخفيه عنه كي تمنعه من الاختيار، فهذه ليست خصوصية.
- بل خيانة؟
- قد تكون.

.....

- فكر التلميذ قليلاً.
- ثم قال:
- إذن لكل إنسان سر؟
- تقريباً.
- وهل تعتقد أن الإنسان يستطيع أن يعيش دون أسرار؟
- ابتسم الحكيم.
- ربما يستطيع، لكنه لن يكون إنساناً طبيعياً.
- لماذا؟
- لأنَّ بعض الأشياء لا نحتفظ بها خوفاً من الناس، بل لأننا لم نفهمها نحن بعد.
- مثل ماذا؟
- شعور لم نعترف به، ذنب لم نتصالح معه، رغبة نخجل منها، أو ذكرى نخاف أن نفتح بابها.
- قال التلميذ:
- وهل يجب أن نكشف هذه الأشياء لمن نحب؟
- لا.
- حتى لمن نثق به؟
- الثقة لا تعني أن تسلم إنساناً كل غرفك الداخلية.
- ولماذا؟
- قال الحكيم:
- لأنَّ الإنسان يحتاج أحياناً إلى مكان داخله لا يدخله أحد.
- ثم أضاف:

- لكن احذر أن يتحول هذا المكان إلى قبر.

.....

قال التلميذ:

- كيف أعرف أن سري أصبح عبئاً؟

قال الحكيم:

- حين تبدأ في ترتيب حياتك كلها كي لا يكتشفه أحد.

- وماذا أفعل حينها؟

- اسأل نفسك: هل أخفيه لأنني أحتاج إلى خصوصيتي، أم لأنني أخاف

مواجهة الحقيقة؟

سكت التلميذ.

ثم قال:

- وهل هناك أسرار يجب أن تبقى حتى الموت؟

قال الحكيم:

- ربما.

- حتى لو كان كشفها يريحنا؟

- الراحة ليست دائماً سبباً كافياً للكشف.

- لكن الكتمان مؤلم.

- وبعض الآلام نحملها لأن حملها أقل ظلاماً من إلقائها على شخص آخر.

نظر التلميذ إليه.

- هل تتحدث عن نفسك؟

ابتسم الحكيم.

- ربما.

- عن المرأة التي أحببتها؟

سكت الحكيم.

ثم قال:

- بعض الأسرار لا تخصصنا وحدنا.

فهم التلميذ أن السؤال انتهى.

.....

- في ذلك المساء، جلسا أمام النار.
كان التلميذ يحدق في اللهب، ثم قال فجأة:
- أحياناً أغار من الآخرين.
رفع الحكيم رأسه.
- من ماذا؟
- من حياتهم.
- أي حياة؟
- أرى شخصاً يملك شيئاً لا أملكه، فأشعر أن حياتي أقل منه.
قال الحكيم:
- ماذا تظن أنه يملك؟
- المال، النجاح، الحب... أحياناً كل شيء.
- هل تعرف أنه يملك كل شيء؟
- أراه.
- أنت ترى ما يسمح لك أن تراه.
- وماذا تقصد؟
قال الحكيم:
- أنت ترى بيته، لا وحدته. ترى نجاحه، لا خوفه. ترى من يحبونه، ولا تعرف ما يدور بينهم حين تغلق الأبواب.
- لكن بعض الناس أفضل حالاً منا فعلاً.
- بالطبع.
- إذن لماذا لا أعترف بذلك؟
- اعترف.
استغرب التلميذ.
- ماذا؟
- قل: «هو أفضل مني في هذا الشيء.»
- أليس هذا مؤلماً؟
- قليلاً.
ثم قال:
- لكنه أقل خطراً من أن تقنع نفسك بأنك لا تحسده.

قال التلميذ:

- وهل الحسد دائماً شيء سيئ؟

قال الحكيم:

- الشعور ليس جريمة.

- إذن ماذا يكون السيئ؟

- ما تفعله بالشعور.

- كيف؟

- قد ترى إنساناً نجح، فتقول: «أتمنى أن أصل مثله.»

- هذا جيد.

- وقد تقول: «أتمنى أن يفشل حتى أشعر أنني أفضل منه.»

- وهذا حسد.

- نعم.

قال الحكيم:

- الأول يخبرك بما تريد. والثاني يخبرك بما يؤلمك.

سكت التلميذ.

- وكيف أعرف ما الذي يؤلمني؟

- انظر إلى الشيء الذي يزعجك في نجاح الآخرين أكثر من نجاحهم أنفسهم.

- مثل ماذا؟

- إذا أزعجك جمال شخص، اسأل نفسك عن علاقتك بصورة نفسك.

إذا أزعجك نجاحه، اسأل نفسك عن شعورك تجاه نجاحك.

إذا أزعجك حبّ الناس له، اسأل نفسك: هل أفقد الحب، أم أفقد الشعور

بأنني مهم؟

ظل التلميذ صامتاً.

قال الحكيم:

- الحسد أحياناً لا يقول لك: «أريد ما عنده.»

ثم أضاف:

- بل يقول: «لماذا ليس عندي أنا؟»

.....

قال التلميذ:

- وهل يمكن أن أفرح لخير شخص أحسده؟

- نعم.

- كيف؟

- بأن تعرف أن نجاحه لا يعني فشلك.

- لكنني أشعر أنه أخذ مكاني.

ضحك الحكيم.

- هل الحياة مقعد واحد؟

- لا.

- إذن لماذا تتصرف كأن كل خير يصيب غيرك ينتقص من نصيبك؟

قال التلميذ:

- لأنني أقارن.

- بمن؟

- بالجميع.

قال الحكيم:

- وهذه واحدة من أكثر المعارك التي لا يمكن أن تربحها.

- لماذا؟

- لأنك دائماً ستجد شخصاً أغنى منك، أو أجمل منك، أو أكثر نجاحاً، أو أكثر حظاً.

ثم نظر إليه وقال:

- وإذا جعلت قيمتك مرتبطة بكونك أفضل من الآخرين، فلن ترتاح حتى لو

أصبحت أفضل من الجميع.

.....

قال التلميذ:

- وهل هناك علاج للحسد؟

قال الحكيم:

- نعم.

- ما هو؟

- أن تحوّل السؤال.

- كيف؟
- بدلاً من أن تقول: «لماذا لديه ما ليس لدي؟»
- ماذا أقول؟
- «ماذا يكشف لي هذا الشعور عن الشيء الذي أريده؟»
- ثم؟
- إن كان ممكناً، اسعَ إليه.
- وإن لم يكن؟
- تعلم أن تريده دون أن تتمنى زواله عن صاحبه.
- قال التلميذ:
- هذا صعب.
- أعرف.
- وهل وصلت إليه؟
- ابتسم الحكيم.
- لا.
- حتى أنت؟
- حتى أنا.
- ثم أخذ غصناً وحرك به النار.
- وقال:
- لكنني تعلمت شيئاً.
- ماذا؟
- حين أجد نفسي أحسد أحداً، لا ألومه على ما يملك.
- وماذا تفعل؟
- أسأل نفسي: ما الذي يؤلمني في أن يكون هو سعيداً؟
- رفع التلميذ عينيه إليه.
- وماذا وجدت؟
- ابتسم الحكيم.
- في أغلب المرات... كنت لا أغار منه.
- ممّ كنت تغار إذاً؟
- نظر الحكيم إلى النار.

وقال:

- من النسخة التي كنت أتمنى أن أكونها أنا.

ساد الصمت.

ثم قال التلميذ:

- وهل هذا يعني أن الحسد قد يكون رسالة؟

- أحياناً.

- رسالة عن ماذا؟

- عن رغبة دفنتها، أو نقص لم تعترف به، أو حلم تخلّيت عنه قبل أن تتأكد أنه ليس لك.

ثم نظر إليه.

- لكن لا تجعل الرسالة عذراً للأذى.

.....

كانت النار قد بدأت تخبو.

قال التلميذ:

- غريب.

- ماذا؟

- بدأت أسألك عن الكذب، وانتهينا بالحسد.

ابتسم الحكيم.

- لأنّ الأشياء التي في داخل الإنسان لا تعيش منفصلة.

- كيف؟

قال الحكيم:

- قد تكذب لأنك تخجل من سر.

وقد تخفي سراً لأنك تخاف أن يقارنك الناس بغيرك.

وقد تحسد غيرك لأنك تخفي عن نفسك شيئاً تتمنى أن تكونه.

ثم قال:

- نحن لسنا مجموعة من الأبواب المنفصلة يا بني.

- ماذا نحن إذاً؟

قال الحكيم:

- بيت واحد.

- وكل باب؟
- يقود أحياناً إلى باب آخر.
- نظر التلميذ إلى النار.
- وقال:
- وربما لهذا السبب يصعب علينا أن نفهم أنفسنا.
- ابتسم الحكيم.
- الآن بدأت تفهم.

.....

المحطة الخامسة: وهم القوة واختبار المعنى

في اليوم التالي، كان التلميذ يسير إلى جوار الحكيم، لكنه بدا شارد الذهن.
قال الحكيم:

- ما بك؟
- أفكر في كلامك بالأمس.
- في الحسد؟
- وفي المقارنة.
- وما الذي أزعجك فيها؟
- قال التلميذ:
- اكتشفت أنني أقارن نفسي بالناس أكثر مما كنت أظن.
- ومتى تفعل ذلك؟
- طوال الوقت تقريباً.
- ابتسم الحكيم.
- إذن أخبرني: من تنتصر عليه حين تقارن نفسك بالآخرين؟
- لا أعرف.
- أجب.
- فكر التلميذ.
- ربما أحاول أن أعرف إن كنت جيداً بما يكفي.
- قال الحكيم:
- وهذه أول مشكلة.
- لماذا؟
- لأنك جعلت قيمة نفسك مسابقة.

.....

قال التلميذ:

- لكن ألا نحتاج إلى معرفة مستوانا؟
- في بعض الأمور، نعم.
- إذا كنت أتعلم شيئاً، أليس من الطبيعي أن أقارن نفسي بمن هم أفضل مني؟
- إذا كانت المقارنة تقول لك: «تعلم منهم»، فهي نافعة.
- ومتى تصبح مؤذية؟

- حين تقول لك: «أنت أقل منهم».

- أليست النتيجة واحدة؟

- لا.

ثم قال الحكيم:

- في الأولى تنظر إلى الآخرين لترى الطريق. وفي الثانية تنظر إليهم لترى قيمتك.

سكت التلميذ.

قال الحكيم:

- لا تقارن بدايتك بمنتصف طريق شخص آخر.

- لكنني لا أعرف أين بدأ.

- وهذه هي المشكلة.

.....

قال التلميذ:

- ربما لهذا السبب أشعر أحياناً أن الجميع يتقدمون وأنا واقف.

- هل الجميع؟

- هكذا يبدو لي.

- وهل تعرف حياة الجميع؟

- لا.

- إذن أنت تقارن حياتك الحقيقية بصورة ناقصة عن حياتهم.

قال التلميذ:

- لكنني أرى نجاحاتهم.

- وترى إخفاقاتهم؟

- بعضها.

- خوفهم؟

- لا.

- ندمهم؟

- لا.

- لياليهم التي لم يناموا فيها؟

- لا.

قال الحكيم:

- إذن أنت لا تقارن نفسك بالناس.
- بماذا أقارن نفسي؟
- بصورة صنعتها عنهم.

.....

قال التلميذ:

- وهل الغيرة هي نفسها المقارنة؟
- لا.
- فما الفرق؟
- المقارنة تقول: «هو أفضل مني في شيء.»
- والغيرة؟
- تقول: «أخشى أن أفقد شيئاً أريده بسبب شخص آخر.»
- مثل ماذا؟
- شخصاً تحبه، أو مكانة، أو اهتماماً، أو حتى فرصة.

قال التلميذ:

- وهل الغيرة دليل حب؟
- ابتسم الحكيم.
- أحياناً تكون دليلاً على الخوف.
- أليس الخوف من فقدان من نحب جزءاً من الحب؟
- نعم.

ثم قال:

- لكن الحب يقول: «أريد أن تكون بخير.»
- والغيرة؟
- تقول: «أريد أن تظل لي.»
- سكّ التلميذ.

.....

قال:

- ومتى تصبح الغيرة مؤذية؟
- حين تحاول أن تمنع الشيء الذي تخاف فقدته من أن يكون حراً.

- كيف؟
- حين تبدأ في التفتيش، والشك، والمراقبة، وطلب الطمأنينة كل ساعة.
- لكن الإنسان قد يفعل ذلك لأنه يحب.
- قال الحكيم:
- الخوف يستطيع أن يرتدي ثياب الحب بسهولة.
- ثم أضاف:
- ليس كل من يقول «أنا أخاف عليك» يريد مصلحتك.
- ماذا يريد إذاً؟
- أحياناً يريد أن يطمئن نفسه.
- قال التلميذ:
- وكيف أعرف الفرق؟
- اسأل نفسك: «هل أريد حماية من أحب، أم أريد السيطرة عليه كي لا أخاف؟»

.....

- سكت التلميذ قليلاً.
- ثم قال:
- وهل الغيرة دائماً خطأ؟
- لا.
- إذن؟
- الشعور قد يكون طبيعياً. لكن التصرف الذي تختاره بعد الشعور هو الذي يحتاج إلى حساب.
- قال التلميذ:
- فإذا شعرت بالغيرة؟
- لا تتهم.
- ماذا أفعل؟
- اسأل.
- وإذا خفت؟
- اعترف بخوفك.
- وإذا لم يكن لديك دليل؟

- لا تبين حكماً على الظنون.

ثم قال:

- أسوأ ما يمكن أن تفعله الغيرة أن تجعل الإنسان يعاقب شخصاً على شيء لم يفعله.

.....

قال التلميذ:

- لكن ماذا لو كان الشك في مكانه؟

نظر إليه الحكيم.

- عندها لا تحتاج إلى التجسس كي تعرف الحقيقة.

- كيف؟

- الحقيقة لا تحتاج دائماً إلى مطاردة.

- وماذا أفعل؟

- تحدث.

- وإذا كذب؟

- عندها يصبح السؤال عن الثقة.

- وإذا اعترف؟

- يصبح السؤال عن قدرتك على البقاء.

- وإذا أنكر؟

- انظر إلى الأفعال مع الوقت.

ثم قال:

- لا تجعل نفسك قاضياً ومحققاً وسجّاناً في علاقة يفترض أن يكون فيها
اثنان متساويين.

.....

قال التلميذ:

- تحدثت عن الثقة.

- نعم.

- وهل الثقة تعني ألا أشك أبداً؟

- لا.

- فما هي؟

قال الحكيم:

- أن تعرف أن الشخص الآخر يستطيع أن يؤذيك، ثم تختار ألا تعيش طوال الوقت وكأن الأذى قد حدث.

- هذه مخاطرة.

- الحبّ مخاطرة.

- وماذا لو خذلني؟

- قد يحدث.

- وماذا أفعل؟

قال الحكيم:

- لا تعاقب شخصاً جديداً على خطأ شخص قديم.

سكت التلميذ.

- ماذا تقصد؟

- أن تخونك امرأة لا يعني أن كل النساء خائنات.

- أو يخونني رجل؟

- أو يخونك رجل.

ثم قال:

- الجرح القديم قد يجعلك حذراً، لكن لا تسمح له أن يجعلك ظالماً.

.....

في المساء، كانا يجلسان قرب جدول ماء صغير.

قال التلميذ:

- تحدثنا عن المقارنة والغيرة.

- نعم.

- وأظن أن وراءهما شيئاً آخر.

- ماذا؟

- الكرامة.

نظر الحكيم إليه باهتمام.

- ولماذا؟

قال التلميذ:

- لأنني أحياناً أتنازل عن أشياء كي لا أخسر شخصاً.

- وما الذي تخسره؟

- نفسي.

صمت الحكيم.

ثم قال:

- الآن وصلنا إلى سؤال مهم.

.....

قال التلميذ:

- متى يكون التنازل حكمة، ومتى يكون إهانة للنفس؟

قال الحكيم:

- التنازل ليس إهانة في ذاته.

- فما الذي يحدد ذلك؟

- لماذا تتنازل؟

- من أجل من أحب؟

- هذا سبب جميل، لكنه ليس كافياً.

- ماذا ينقصه؟

- أن تسأل: «عن ماذا أتنازل؟»

قال التلميذ:

- وضح لي.

قال الحكيم:

- إذا تنازلت عن عادة سيئة لأنّ من تحبّ يتأذى منها، فهذا نضج.

- وإذا تنازلت عن حقك في الاحترام؟

- فهذا شيء آخر.

- وإذا اعتذرت رغم أنك لم تخطئ؟

- هذا يعتمد على السبب.

- كيف؟

قال الحكيم:

- إذا اعتذرت لأنك تريد إنهاء شجار، دون أن تتنازل عن حقيقتك، قد يكون

ذلك حكمة.

ثم قال:

- أما إذا اعتدت أن تعتذر فقط لأنَّ الطرف الآخر يغضب، حتى حين يظلمك، فقد علمته أن غضبه أقوى من كرامتك.

.....

قال التلميذ:

- إذن الكرامة تعني ألا أتنازل؟

- لا.

- ماذا تعني؟

- أن تعرف ما الذي يمكن التنازل عنه دون أن تخسر نفسك.

- مثل ماذا؟

- رأي، عادة، وقت، مكان، وحتى بعض الحقوق الصغيرة.

- وما الذي لا ينبغي التنازل عنه؟

قال الحكيم:

- كرامتك، وحدودك، وحقك في أن تكون آمناً من الأذى المتكرر.

سكت التلميذ.

ثم قال:

- وهل الصمت عن الإهانة ضعف؟

- ليس دائماً.

- متى يكون ضعفاً؟

- حين تصمت لأنك تخاف أن تخسر الشخص.

- ومتى يكون قوة؟

- حين تختار الصمت لأنك تعرف أن الرد لن يغير شيئاً، ثم تبتعد.

قال التلميذ:

- إذن الرحيل قد يكون كرامة؟

نظر الحكيم إليه.

- أحياناً.

- لكنك قلت سابقاً إننا تحدثنا عن الرحيل كثيراً.

ابتسم الحكيم.

- لهذا لا تجعل كل رحيل كرامة.

- كيف؟

- قد يرحل الإنسان لأنه مجروح، ثم يعود إلى المكان نفسه حين يهدأ.
- وما الفرق؟
- الكرامة ليست أن تغادر دائماً.
- ثم قال:
- الكرامة أن تستطيع البقاء دون أن تهين نفسك، وأن تستطيع الرحيل دون أن تهين من أمامك.

.....

قال التلميذ:

- وهل يمكن أن نحافظ على كرامتنا ونبقى مع من أخطأ بحقنا؟
- نعم.
- كيف؟
- إذا اعترف بخطئه، وتغير، ووضع حدوداً تمنع تكراره.
- وإذا لم يتغير؟
- عندها لا تجعل التسامح تصريحاً بإعادة الأذى.

قال التلميذ:

- وماذا لو كنت أحبه؟

قال الحكيم:

- الحب لا يلغي الحدود.
- وماذا لو قال إنني قاس؟
- ليس كل من يتأذى من حدودك ضحية لها.
- سكت التلميذ.
- قال الحكيم:
- أحياناً يغضب الناس حين تتوقف عن السماح لهم بفعل ما اعتادوا أن تفعلوه بك.

.....

ظل التلميذ ينظر إلى الماء.

ثم قال:

- أظن أنني فهمت شيئاً.

- ماذا؟

- أنني كنت أخط بين أن أكون طيباً، وأن أسمح للآخرين أن يفعلوا بي ما يريدون.
- ابتسم الحكيم.
- هذه غلطة شائعة.
- وما الفرق بين الطيبة والضعف؟
- قال الحكيم:
- الطبيب يستطيع أن يقول «لا».
- والضعيف؟
- يخاف أن يقولها.
- ثم أضاف:
- لا تجعل قلبك قاسياً كي تحمي كرامتك.
- ماذا أفعل إذاً؟
- اجعل حدودك واضحة، وقلبك رحيماً.

.....

- قال التلميذ:
- وهل يستطيع الإنسان أن يحب نفسه ويحافظ على الآخرين في الوقت نفسه؟
- قال الحكيم:
- إذا فهم معنى الاثنين.
- كيف؟
- حبّ النفس لا يعني أن تكون الأول دائماً.
- وحبّ الآخرين لا يعني أن تكون الأخير دائماً.
- ثم نهض.
- وقال:
- لا تبحث عن مكان أعلى من الناس.
- ولا أدنى منهم؟
- لا.
- أين إذاً؟
- نظر الحكيم إليه.

- إلى جوارهم.
ومضيا بمحاذاة الجدول، لا يتقدم أحدهما الآخر.
وكان التلميذ يشعر أن شيئاً في داخله بدأ يستقيم؛ ليس لأنه أصبح أقوى من
الناس، ولا لأنه تعلم كيف ينتصر عليهم، بل لأنه بدأ يفهم أن كرامته لا
تحتاج إلى أن تسحق كرامة غيره.

.....

المحطة السادسة: الجرح القديم

- كان الصباح بارداً حين وصل التلميذ إلى الحكيم.
وجده جالساً أمام كوخه، ينظر إلى الطريق الممتد أمامه.
جلس إلى جواره، وقال:
- يا حكيم...
- نعم؟
- هل الحياة عادلة؟
نظر الحكيم إليه، ثم ابتسم ابتسامة صغيرة.
- لماذا تسأل؟
- لأنني أرى أناساً يفعلون الخير ولا يجدون إلا الألم، وآخرين يؤذون الناس
ثم يعيشون كأن شيئاً لم يحدث.
قال الحكيم:
- وأنت تريد أن تعرف لماذا؟
- نعم.
- لأنك تريد من الحياة أن تكون كما ينبغي أن تكون.
- أليس من حقنا ذلك؟
- أن نتمنى؟ نعم.
- وأن نتوقع؟
- هنا تبدأ المشكلة.
قال التلميذ:
- لماذا؟
- لأن الحياة ليست محكمة.
- لكنها يجب أن تكون عادلة.
- «يجب» كلمة جميلة، لكنها لا تغير دائماً ما يحدث.
سكت التلميذ.
قال الحكيم:
- قد ينجح الظالم، وقد يخسر الطيب. قد يمرض من لم يؤذ أحداً، ويعيش من
أذى كثيرين. وقد يفلت إنسان من عقابه، ليس لأنه بريء، بل لأن الدنيا لا
تكشف كل شيء.

- وهذا مؤلم.
- نعم.
- فماذا نفعل؟
- قال الحكيم:
- أولاً، لا تكذب على نفسك وتقول إن كل شيء يحدث لسبب عادل.
- رفع التلميذ رأسه.
- أليس لكل شيء سبب؟
- لكل شيء أسباب كثيرة، لكن ليس لكل شيء عدالة.
- ثم أضاف:
- أحياناً تحدث أشياء سيئة، وهذا كل ما في الأمر.

.....

- قال التلميذ:
- إذا لم تكن الحياة عادلة، فمن أين يأتي العدل؟
- من الناس.
- أي أننا نحن من يجب أن نصنعه؟
- بقدر ما نستطيع.
- لكننا لن نستطيع إصلاح كل شيء.
- لا.
- إذن ماذا نفعل؟
- قال الحكيم:
- لا تجعل عجزك عن إصلاح العالم عذراً كي تظلم من تستطيع أن تتصفه.
- سكت التلميذ.
- قال الحكيم:
- العدل يبدأ من الأشياء الصغيرة التي لا يراها أحد.
- مثل ماذا؟
- أن تعطي كل إنسان حقه حتى حين لا تستطيع أن تجني من ذلك شيئاً.
- وهل هذا يكفي؟
- لا.
- إذن؟

- لكنه أفضل من ألا تفعل شيئاً.

.....

قال التلميذ:

- وماذا عن من ظلمني؟

نظر إليه الحكيم.

- ماذا تريد منه؟

- أن يدفع الثمن.

- أي ثمن؟

- أن يتألم كما تألمت.

ظل الحكيم صامتاً لحظة.

ثم قال:

- الآن وصلنا إلى الانتقام.

.....

قال التلميذ:

- هل الانتقام خطأ دائماً؟

- لا.

تفاجأ التلميذ.

- مرة أخرى تقول «لا».

- لأنني لا أحبّ الإجابات السهلة.

- ومتى لا يكون خطأ؟

قال الحكيم:

- حماية نفسك ليست انتقاماً.

- كيف؟

- إذا ابتعدت عن شخص يؤذيكي تمنعه من أذيتك، فهذا حماية.

- وإذا أبلغت عنه كي يمنع من أذى الآخرين؟

- قد يكون عدلاً.

- وإذا أذيتك بعد أن أصبح عاجزاً عن أذيتي؟

قال الحكيم:

- هنا يبدأ الانتقام.

سكت التلميذ.

- وما المشكلة فيه؟

قال الحكيم:

- أنك لم تعد تحاول منع الظلم.

- ماذا أفعل إذا؟

- تريد أن تجعله يتألم.

- أليس من حقه أن يتألم؟

- ربما.

- إذن؟

قال الحكيم:

- السؤال ليس: هل يستحق الألم؟

ثم نظر إليه.

- السؤال: ماذا سيصبح منك إذا جعلت إيذاه غايتك؟

.....

قال التلميذ:

- لكن أحياناً أشعر أن عدم الانتقام يعني أنني ضعيف.

ضحك الحكيم.

- هذه واحدة من أكثر الأكاذيب التي يصدقها الناس.

- لماذا؟

- لأنَّ الانتقام يمنحك شعوراً سريعاً بالقوة.

- لكنه لا يجعلني قوياً؟

- يجعلك قادراً على الإيذاء.

- أليس هذا قوة؟

- القدرة شيء، والقوة شيء آخر.

سكت التلميذ.

قال الحكيم:

- تستطيع أن تصرخ، وأن تضرب، وأن تهدد، وأن تؤذي.

- وهذا لا يعني أنني قوي؟

- لا.

- فما القوة إذاً؟

قال الحكيم:

- أن تملك القدرة على فعل شيء، ثم تعرف متى لا تفعله.

.....

قال التلميذ:

- إذن القوة هي السيطرة على النفس؟

- جزء منها.

- وما الجزء الآخر؟

- أن تتحمل نتائج اختيارك.

- كيف؟

- أن تقول «لا» حين يجب أن تقولها، وأن تقول «نعم» حين تكون مكلفاً

بها، وأن تقبل خسارة شيء تحبه إذا كان الاحتفاظ به سيجعلك شخصاً لا تحترمه.

قال التلميذ:

- هذا يشبه الكرامة.

ابتسم الحكيم.

- لأنّ الأشياء المهمة في الإنسان تتقاطع.

.....

قال التلميذ:

- هل القوي لا يخاف؟

- بل يخاف كثيراً.

- إذن ما الذي يميزه؟

- أنه لا يسمح للخوف بأن يقرر دائماً.

- وهل القوي لا يغضب؟

- يغضب.

- ولا يحزن؟

- يحزن.

- ولا يحتاج إلى أحد؟

- يحتاج.

قال الحكيم:

- القوة ليست أن تصبح حجراً.
- فما هي؟
- أن تبقى إنساناً دون أن تجعل ضعفك عذراً لإيذاء الآخرين.

.....

قال التلميذ:

- وماذا عن الإنسان الذي يستطيع الانتقام، لكنه لا يفعل؟
- نظر الحكيم إليه.
- هذا سؤال جيد.
- لماذا؟
- لأنك بدأت تفهم الفرق.
- بين ماذا؟
- بين القوة والسيطرة.
- وما الفرق؟

قال الحكيم:

- المسيطر يحتاج أن يعرف الآخر أنه يستطيع إيذاءه.
- والقوي؟
- لا يحتاج أن يثبت ذلك.
- ثم قال:

- يستطيع أن يرد، لكنه يختار ما هو أنفع.
- حتى إذا لم يقدر الآخر ذلك؟
- حتى لو لم يقدره.
- وحتى إذا ظنوه جبناً؟
- نعم.

- ولماذا؟

قال الحكيم:

- لأن القوة التي تحتاج إلى تصفيق الآخرين ليست قوة مكتملة.

.....

سكت التلميذ طويلاً.

ثم قال:

- لكن ماذا لو سامحت شخصاً ظلمني، ثم عاد وأذاني؟

قال الحكيم:

- سامحه مرة أخرى إن استطعت.

- وأبقيه قريباً مني؟

- لا.

- كيف أسامحه وأبتعد عنه؟

- لأنّ التسامح يتعلق بما تحمله في قلبك، والحدود تتعلق بما تسمح له أن يفعله بك.

قال التلميذ:

- إذن يمكنني أن أسامح دون أن أثق.

- نعم.

- وأن أثق دون أن أنسى؟

- نعم.

- وأن أحبّ دون أن أسمح بالأذى؟

- نعم.

ثم قال الحكيم:

- النضج أن تعرف أن هذه الأشياء ليست متناقضة.

.....

قال التلميذ:

- وهل يمكن أن يكون الإنسان عادلاً مع من لا يحبه؟

- يجب أن يحاول.

- ولماذا؟

- لأنّ العدل الذي لا يظهر إلا مع من نحبّ ليس عدلاً، بل محاباة.

- وماذا عن أعدائنا؟

قال الحكيم:

- هنا يُختبر العدل الحقيقي.

- كيف؟

- حين تستطيع أن تكذب بشأنهم ولا تفعل.
- أو تنتقم منهم؟
- أو تظلمهم لأنك تظن أنهم ظلموك.
- وهل هذا سهل؟
- ابتسم الحكيم.
- لو كان سهلاً لما احتجنا إلى كلمة «عدل».

.....

قال التلميذ:

- أظن أنني فهمت الآن لماذا قلت إن القوة ليست القدرة على إيذاء الآخرين.
- ماذا فهمت؟
- أنني قد أنتصر على شخص وأخسر نفسي.
- نظر الحكيم إليه طويلاً.
- وقال:
- وهذه من أخطر الانتصارات.
- لماذا؟
- لأنَّ الناس يرون الجزء الأول منها.
- ولا يرون الخسارة؟
- لا.

ثم قال:

- قد تنتصر في جدال، وتخسر علاقة.
- قد تنتصر في خصومة، وتخسر سلامك.
- قد تنتصر في الانتقام، وتكتشف بعد سنوات أنك حملت الشخص الذي تكرهه معك إلى كل مكان.
- سكت التلميذ.

قال الحكيم:

- أحياناً يكون أعظم انتصار أن تضع حداً للظلم دون أن تسمح للظلم أن يصنع منك ظالماً آخر.

.....

قال التلميذ:

- إذن ماذا أفعل بمن ظلمني؟

أجاب الحكيم:

- افعل ما تستطيع لإيقاف ظلمه.

- ثم؟

- خذ حقك إن كان لك حق.

- ثم؟

- ابتعد إن كان البقاء يؤذيك.

- ثم؟

- لا تجعل حياته تسكن في رأسك أكثر مما تستحق.

قال التلميذ:

- وماذا لو لم أستطع أن أنسى؟

قال الحكيم:

- لا تنسَ.

- ألا يجب أن أنسى كي أرتاح؟

- لا.

- إذن؟

- تذكر دون أن تنتقم.

- وأغفر؟

- إن استطعت.

- وأترك الأمر؟

- إن استطعت.

- وإن لم أستطع؟

ابتسم الحكيم.

- حاول غداً.

.....

حل الصمت بينهما.

وبعد وقت قال التلميذ:

- يا حكيم...

- نعم؟
- هل أنت قوي؟
- ضحك الحكيم.
- لا أعرف.
- كيف لا تعرف؟
- لأنني لم أختبر نفسي في كل شيء.
- لكنك عشت طويلاً.
- العمر لا يضمن القوة.
- ثم نظر إلى يديه.
- وقال:
- أعرف فقط أنني كنت أظن نفسي قوياً حين كنت قادراً على الرد.
- والآن؟
- الآن أظن أنني أصبحت أقوى قليلاً حين صرت قادراً على ألا أردد.
- قال التلميذ:
- وهل هذا يعني أنك لا تنتقم أبداً؟
- ابتسم الحكيم.
- لا.
- إذن؟
- ما زلت إنساناً.
- ضحك التلميذ.
- فضحك الحكيم معه.
- ثم قال:
- لكن الفرق أنني صرت أسأل نفسي قبل أن أفعل: «إذا فعلت هذا، من سأصبح بعده؟»
- نظر التلميذ إليه.
- وهل هذا السؤال يكفي؟
- قال الحكيم:
- لا.
- ثم نهض.

- لكنه سؤال جيد قبل أن تفتح باباً قد لا تعرف كيف تغلقه.
ومضيا في الطريق.
وكان التلميذ يفكر في الرجل الذي ظلمه يوماً، وفي رغبته القديمة في أن يراه يتألم.
ولأول مرة، لم يسأل:
«هل يستحق؟»
بل سأل نفسه:
«ماذا سيجعلني هذا؟»

.....

كان المساء قد بدأ يهبط ببطء.
لم تعد الشمس ترى من بين الأشجار إلا خيوطاً ذهبية متقطعة، وكانت الريح تحرك أوراق الشجر فوقهما كأنها تهمس بشيء لا يريد أن يسمعه أحد.
كان التلميذ يمشي إلى جوار الحكيم.
لم يتحدث أيُّ منهما.
وللمرة الأولى منذ عرف الحكيم، لم يشعر التلميذ أن الصمت يحتاج إلى سؤال.

كان قد مضى وقت طويل منذ جاء إلى هذا المكان.
جاء يومها وفي داخله أسئلة أكثر مما يحتمل، وخوف أكثر مما يعترف به،
ووحدة كان يخجل منها كأنها عيب.
كان يريد من الحكيم أن يخبره كيف يعيش.
كيف لا يخاف.
كيف لا يحزن.
كيف يعرف الصديق.
كيف يحب.
كيف ينسى.
كيف يغفر.
كيف ينجح.
كيف يخسر.
كيف يرحل.

وكان يظن أن الحكمة هي أن يجد لكل سؤال جواباً.
أما الآن، فقد أدرك شيئاً آخر.
أن بعض الأسئلة لا تأتي إلى الحياة كي تجد جواباً.
بعضها يأتي كي تغيّر الإنسان الذي يسألها.

توقف الحكيم عند المكان الذي افترقا فيه مرات كثيرة.
نظر إلى الطريق، ثم إلى التلميذ.
قال:

- إلى أين ستذهب؟

ابتسم التلميذ.

- لا أعرف.

هز الحكيم رأسه برضا.

- جيد.

ضحك التلميذ.

- كنت ستقول لي سابقاً إن عدم معرفة الطريق مشكلة.

- وكنت مخطئاً.

- تعترف بذلك؟

- بعد كل ما قلته لك، ألا يحق لي أن أخطئ قليلاً؟

ضحك.

ثم ساد بينهما صمت طويل.

قال التلميذ:

- أتذكر أول يوم جئت فيه إليك؟

- أتذكر.

- كنت أريد جواباً لكل شيء.

- وكنت غاضباً لأنني لم أعطك أيّاً منها.

- الآن أفهم لماذا.

- لماذا؟

قال التلميذ:

- لأنك لو أعطيتني الإجابات، لكنت حملتها عنك بدلاً من أن أجدها في نفسي.

نظر الحكيم إليه.

وقال:

- وهل وجدت الإجابات؟

فكر التلميذ.

- بعضها.

- والباقي؟

ابتسم.

- ما زلت أسأل عنه.

قال الحكيم:

- إذن لم يذهب الوقت سدى.

جلسا تحت الشجرة القديمة.

كانت الشجرة قد شهدت كثيراً من أحاديثهما.

هنا سأل التلميذ عن الوحدة.

وهنا تحدثا عن الصديق.

وهنا بكى للمرة الأولى أمام الحكيم.

وهنا سمع قصة المرأة التي أحبها الحكيم.

وهنا تحدثا عن الخوف، والندم، والحسد، والغيرة، والكرامة، والعدل،

والانتقام.

كل تلك الكلمات التي كانت في يوم من الأيام مجرد أفكار، أصبحت الآن

شيئاً من حياته.

قال التلميذ:

- يا حكيم...

- نعم؟

- هل كنت تعرف منذ البداية أنني سأصل إلى هنا؟

ابتسم الحكيم.

- لا.

- لكنك كنت تعرف أنني سأرحل يوماً.

- نعم.
- وكيف؟
- لأن كل من يأتي إلينا لا يأتي كي يبقى عندنا.
- ثم نظر إليه وقال:
- حتى أنا.
- سكت التلميذ.
- قال:
- ماذا تقصد؟
- أنني لن أكون معك دائماً.
- رفع التلميذ عينيه إليه.
- ولم يكن في صوته هذه المرة خوف، بل شيء يشبه الحزن الهادئ.
- أعرف.
- قال الحكيم:
- هل ما زلت تخاف الوحدة؟
- فكر التلميذ.
- ثم قال:
- نعم.
- ابتسم الحكيم.
- جواب صادق.
- لكنني لم أعد أخاف منها كما كنت.
- ماذا تغير؟
- قال التلميذ:
- عرفت أن الوحدة ليست دائماً أن لا يكون هناك أحد.
- فما هي؟
- أن أشعر أنني لا أملك أحداً أعود إليه داخل نفسي.
- نظر الحكيم إليه طويلاً.
- وماذا وجدت؟
- ابتسم التلميذ.
- وجدتني.

خفض الحكيم عينيه.

ولم يقل شيئاً.

قال التلميذ:

- كنت أظن أن الصديق هو من يبقى معي دائماً.

- وماذا تظن الآن؟

- الصديق هو من أستطيع أن أكون معه كما أنا، دون أن أخاف أن أفقده إذا

اختلفت معه.

قال الحكيم:

- وماذا لو رحل؟

- سأحزن.

- وماذا لو خانك؟

- سأتعلم.

- وماذا لو لم يعد صديقاً؟

- سأترك له حق أن يتغير.

ابتسم الحكيم.

- وماذا لو كنت أنت الذي تغير؟

قال التلميذ:

- سأترك لنفسي الحق نفسه.

قال الحكيم:

- وهل ما زلت تخاف الفشل؟

- نعم.

- والنجاح؟

ضحك التلميذ.

- أكثر مما كنت.

رفع الحكيم حاجبه.

- لماذا؟

- لأنني صرت أعرف أن النجاح قد يجعل الإنسان ينسى نفسه أيضاً.

قال الحكيم:

- وماذا عن المال؟

- سأستخدمه، لا أعبد.
- والسلطة؟
- إن جاءتني، سأراقب كيف أتعامل مع من لا يستطيعون رد أذي.
- والحقيقة؟
- سأبحث عنها حتى حين لا تعجبني.
- والصمت؟
- سأصمت حين يكون الكلام رغبة في الانتصار، وأتكلم حين يصبح الصمت ظلاماً.
- والحب؟
- توقف التلميذ.
- ثم قال:
- سأحاول ألا أجعل خوفي من فقدانه سبباً لإيذائه.
- نظر الحكيم إليه.
- والحسد؟
- سأحاول أن أفهم ما يكشفه عني قبل أن أحقد على صاحبه.
- والغيرة؟
- سأفرق بين خوفي وبين حقي.
- والكرامة؟
- لن أبيعها كي لا أخسر أحداً، ولن أستخدمها ذريعة لأؤذي أحداً.
- والعدل؟
- سأفعله حين أستطيع، حتى عندما لا يكون في صفي.
- والانتقام؟
- سأفكر أولاً في الشخص الذي سأصعبه بعده.
- سكت الحكيم.
- ثم قال:
- يبدو أنك كنت تستمع.
- ابتسم التلميذ.
- كنت أحاول.

حل الليل.

أشعل الحكيم النار للمرة الأخيرة.

أو ربما كان التلميذ هو الذي شعر أنها المرة الأخيرة.

جلسا أمامها طويلاً.

ثم قال التلميذ:

- يا حكيم...

- نعم؟

- ماذا لو عدت يوماً ولم أجذك؟

ظل الحكيم ينظر إلى النار.

وقال:

- ستجد ما هو أهم مني.

- ماذا؟

- كل ما قلته لك، إذا كان قد أصبح جزءاً منك.

- وهل تكفي الكلمات؟

- لا.

- إذن ماذا يكفي؟

قال الحكيم:

- أن تتذكرها حين تحتاجها، وأن تنساها حين تحتاج أن تجد طريقتك

الخاصة.

سكت التلميذ.

قال الحكيم:

- لا أريدك أن تعيش حياتك كما عشتها أنا.

- لماذا؟

- لأنَّ حياتي كانت لي.

ثم نظر إليه.

- وحياتك لك.

نهض التلميذ.

حمل حقيبته.

كان الطريق أمامه مظلماً، لكنه لم يعد يخيفه كما كان.

وقف الحكيم عند باب الكوخ.

قال التلميذ:

- هل لديك نصيحة أخيرة؟

ابتسم الحكيم.

- طلبت مني نصيحة أخيرة مرات كثيرة.

- وهذه المرة الأخيرة حقاً.

فكر الحكيم.

ثم قال:

- لا تجعل ما تعلمته مني سجنًا جديدًا.

- كيف؟

- إذا قلت لك كن شجاعاً، فلا تظن أن عليك ألا تخاف.

إذا قلت لك سامح، فلا تجبر نفسك على نسيان الألم.

إذا قلت لك امض، فلا تظن أن كل بقاء ضعف.

إذا قلت لك ارحل، فلا تجعل الرحيل هروباً.

إذا قلت لك أحب، فلا تنس نفسك.

وإذا قلت لك ثق، فلا تتوقف عن التفكير.

ثم قال:

- لا تحول الحكمة إلى قوانين.

- وماذا أفعل بها؟

- اجعلها أسئلة في داخلك.

قال التلميذ:

- وهل سأصبح حكيماً يوماً ما؟

ضحك الحكيم.

- أتمنى ألا تفعل.

- لماذا؟

- لأنك إذا ظننت أنك أصبحت حكيماً، فقد انتهيت من التعلم.

ابتسم التلميذ.

ثم قال:

- إذن ماذا أتمنى؟
- قال الحكيم:
- أن تبقى إنساناً جيداً وأنت تعرف أنك قد تخطئ.
- وأن أظل أتعلم؟
- نعم.
- وأن أغير رأيي؟
- حين يكون الحق في الجهة الأخرى، نعم.
- وأن أعتذر؟
- حين تخطئ.
- وأن أقول «لا أعرف»؟
- خصوصاً حين لا تعرف.
- وأن أطلب المساعدة؟
- حين تحتاج إليها.
- ثم قال الحكيم:
- وأن تتذكر شيئاً واحداً.
- ماذا؟
- لا أحد يكبر إلى درجة لا يحتاج فيها إلى قلب آخر.

.....

المحطة السابعة: خطوات الحرية

اقترَب التلميذ من الحكيم.
تردّد لحظة.
ثم عانقه.
لم يتحدث أيّ منهما.
وحين ابتعد التلميذ، رأى في عيني الحكيم شيئاً لم يره من قبل.
دمعة.
ابتسم التلميذ.
وقال:
- أنت أيضاً تحزن.
ضحك الحكيم ومسح عينه.
- وهل كنت تظن أنني حجر؟
- أحياناً.
- إذن كنت مخطئاً.
- كثيراً؟
- بما يكفي لتتعلم.
ضحكاً.
ثم استدار التلميذ.
خطا نحو الطريق.
خطوة.
ثم ثانية.
ثم ثالثة.
هذه المرة لم يلتفت.
ليس لأنه لم يكن يحبّ الحكيم.
بل لأنه فهم أخيراً أن الحبّ لا يعني أن تبقى واقفاً إلى جوار من تحبّ إلى الأبد.
أحياناً يكون الحبّ أن تمضي، لأنّ الشخص الذي تحبه علّمك كيف تمضي.

.....

وقف الحكيم يراقبه..
كان التلميذ يبتعد شيئاً فشيئاً.
حتى صار بعيداً.
ثم اختفى بين الأشجار.
عاد الحكيم إلى كوخه.
جلس في مكانه القديم.
أمام النار.
مدّ يده إلى غصن صغير، ووضعه فوق الحطب.
اشتعلت النار.
نظر إليها طويلاً.
ثم قال:
- كان يسألني دائماً عن الطريق.
ابتسم.
- ولم يفهم أن الطريق كان يتشكل تحت قدميه كلما مشى.

.....

في مكان بعيد، كان التلميذ يمشي.
لم يكن يعرف أين سينام.
ولا من سيقابله.
ولا ما الذي سيخسره.
ولا ما الذي سيكسبه.
كان يعرف فقط أنه سيخاف أحياناً.
وسيخطئ.
وسيحب.
وسيحزن.
وسيخسر أشخاصاً.
وسيلتقي آخرين.
وقد ينجح حين لا يتوقع.
وقد يفشل حين يظن أنه مستعد.
وقد يعود إلى بعض الأماكن.

وقد يرحل عن أخرى.
وسيزل يسأل.
لكن شيئاً واحداً تغير.
لم يعد يريد حياة خالية من الألم.
كان يريد حياة تستحق أن يتحمل ألمها.
لم يعد يريد أن يعرف ما سيحدث غداً.
كان يريد أن يكون مستعداً لأن يواجهه.
لم يعد يريد أن يحتفظ بكل من يحب.
كان يريد أن يحبهم دون أن يحول الحب إلى قيد.
لم يعد يريد أن ينتصر دائماً.
كان يريد أن يعرف متى يكون الانتصار خسارة.
ولم يعد يريد أن يكون حكيماً.
كان يريد فقط ألا يتوقف عن التعلم.
ومع مرور السنوات، قد ينسى التلميذ بعض الكلمات.
سينسى ربما ترتيب الحكايات.
سينسى بعض الجمل التي قالها الحكيم.
وقد تختفي من ذاكرته تفاصيل الطريق، ولون السماء في ذلك الصباح،
وصوت النار في تلك الليلة.
لكن هناك أشياء لن ينساها.
سيتذكر أن الوحدة لا تعني دائماً أن تكون وحيداً.
وأن الصديق ليس من يمسك بيدك طوال الطريق، بل من يجعلك قادراً على
المشي حين يترك يدك.
سيتذكر أن الحقيقة قد تكون مؤلمة، لكن الكذب على النفس أكثر قسوة.
وأن الحسد قد يكون سؤالاً عن شيء فقدناه في داخلنا.
وأن الغيرة لا تمنحنا حق امتلاك من نحب.
وأن الكرامة ليست قسوة.
وأن التسامح لا يعني أن تسمح للأذى بأن يتكرر.
وأن العدل قد لا يأتي من الحياة، ولذلك يجب أن نصنع منه ما نستطيع.
وأن الانتقام قد يمنحك لحظة انتصار، لكنه قد يأخذ منك سنوات من السلام.

وأن القوة ليست في أن تستطيع إيذاء الآخرين.
بل في أن تعرف أنك تستطيع... ثم تختار من تكون.
وسيتذكر، قبل كل ذلك، أن الحكمة ليست مجموعة من الإجابات.
الحكمة أن تعرف متى تسأل.

ومتى تصمت.

ومتى تتكلم.

ومتى تبقى.

ومتى ترحل.

ومتى تتمسك.

ومتى تترك.

ومتى تقول:

«كنت مخطئاً»

ومتى تقول:

«لا أعرف»

ومتى تقول:

«سامحت»

ومتى تقول:

«لن أسمح بهذا مرة أخرى»

ربما بعد سنوات طويلة، سيجلس التلميذ في مكان ما، أمام شخص أصغر منه يسأله:

- كيف أعرف أنني أسير في الطريق الصحيح؟

وسيبتسم.

ربما سيتذكر الحكيم.

وربما سيقول له:

- لا أعرف.

سيتعجب الشاب.

وسيسأله:

- لكنك أكبر مني.

فيضحك التلميذ.

ثم يقول:

- وهذا لا يعني أنني أعرف طريقك.
- وقد يصمت قليلاً قبل أن يضيف:
- لكنني أستطيع أن أسير معك قليلاً، إذا أردت.
- وحينها فقط، سيعرف أنه فهم الحكيم حقاً.
- لأنَّ الحكيم لم يكن يريد منه أن يصبح مثله.
- كان يريد منه أن يصبح نفسه.

أما الحكيم...

- فلا نعرف ماذا حدث له بعد ذلك.
- ربما بقي في كوخه سنوات.
- وربما رحل هو الآخر في صباح لم يشهده أحد.
- وربما جاء تلميذ آخر، وجلس أمام النار نفسها، وطرح السؤال نفسه بطريقة مختلفة.
- وربما كانت هناك أسئلة جديدة لم يسمعها الحكيم من قبل.
- وهذا هو الأجل.
- لأنَّ الحكايات التي تنتهي بكل الإجابات تموت حين تُغلق صفحاتها.
- أما الحكاية التي تترك في قلب القارئ سؤالاً...
- فتستمر.

.....

- وهكذا انتهى طريق التلميذ مع الحكيم.
- أو ربما لم ينتهِ.
- فبعض الأشخاص يغادرون حياتنا، لكن أصواتهم تبقى في داخلنا.
- كلما وقفنا أمام اختيار صعب، عاد سؤال.
- كلما خفنا، عاد سؤال.
- كلما أحببنا، عاد سؤال.
- كلما غضبنا، عاد سؤال.
- كلما خسرننا، عاد سؤال.

حتى نكتشف في يوم ما أن الحكيم لم يكن الرجل الذي جلس أمامنا تحت الشجرة.

كان ذلك الصوت الهادئ الذي تعلمنا أن نسمعه داخل أنفسنا. وكان التلميذ، طوال الوقت، لا يبحث عن رجل يرشده إلى الطريق. كان يبحث عن نفسه. وكان عليه أن يمشي كل هذا الطريق... كي يجدها.

.....

وفي آخر الليل، حين أطفأ التلميذ مصباحه، ونظر من النافذة إلى الطريق الممتد تحت ضوء القمر، لم يسأل:

«إلى أين سيأخذني؟»

بل قال لنفسه:

«سأرى.»

ثم ابتسم.

وأغلق النافذة.

ونام.

لأنَّ الحياة، في النهاية، لم تكن وعداً بأن نعرف ما سيحدث.

كانت فقط فرصة...

أن نعيش ما يحدث، ونحن أكثر صدقاً مع أنفسنا، وأكثر رحمة بالآخرين، وأقل خوفاً من الطريق.

وهذا، ربما...

كان كل ما أراد الحكيم أن يعلمه لتلميذه منذ البداية.

كلمة أخيرة:

ليس هذا الكتاب محاولة لتقديم إجابات جاهزة، بل هو دعوة لخلع أردية اليقين المستعار، والعودة إلى النقطة الأولى التي بدأ منها الوعي: السؤال.

بين ضفتي هذا العمل، لا نقتفي أثر شخصٍ عابرة ولا نسرد أحداثاً تنتهي بانتهاء صفحاتها، بل نخوض حواراً تأملياً يفكك المسلّمات، ويغوص في أعماق الوجود، والحرية، والبحث الإنساني الأزلي عن المعنى. إنه مساحة لمن لا يخشون مواجهة المجهول، ولمن يدركون أن الحقيقة ليست محطة وصول، بل مسار شاق وممتع يبدأ حين نجرؤ على طرح التساؤل الأول. إذا كنت تبحث عن طمأنينة الإجابات المقولبة فهذا الكتاب ليس لك، أما إن كنت مستعداً لتحدي صمت الأفكار... فافتح الصفحة الأولى، وتذكر دائماً: في البدء، كان السؤال.

الكاتب